عبد السلام ياسين

جماعة المسلمين ورابطتها



جماعة المسلمين وروابطها

الطبعة الثانية: 2018/1439
ISBN: 9789953506623



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة
هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١
هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١
البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com
الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

جماعة المسلمين ورابطتها

عبد السلام ياسين

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه

مقدمة

«...كان عبد الملك بن عُمَرَ بن عبد العزيز (قلت: وكان صالحا ناصحا لأبيه) رحمه الله يقول لأبيه في خلافته إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل: يا أَبَتِ لَوَدِدْتُ أني غَلَت بي وبكَ القُدورُ في الله عز وجل. وقال بعض الصالحين: وددتُ أنَّ جسمي قُرِضَ بالمقاريض وأن هذا الخلق كلَّه أطاعوا الله عز وجل.

إننا بصدد البحث عن رَأبِ الصدع بين الدعوة والدولة في البناء المستقبل لدولة القرآن. فلا نَذْهَبْ تائهين في تصوُّر هياكل إسلامية بلا روح. وروحُ هذا الجسم، جسم الدولة، هي الدعوة التي تربي المؤمنين على هذه المثالية من بذل النفس والجُهْدِ كلِّهِ لله، فالبناء النفسيّ أساس ترتفع عليه هياكلُ الدولة القرآنية، وإلا كانت صنما وطاغوتا»[1].

«رأب الصدع بين الدعوة والدولة» هو إذن مطمح الكاتب من وراء خطه لهذا الكتاب وأما موضوعه فعرض تصور متكامل لجماعة المسلمين، انطلاقا من نصوص الشرع واستشرافا لموعود الله ورسوله، واعتبارا بتاريخ من سبقنا في الزمان وخاصة منهم من سبقونا بإيمان، وذلك دون إغفال إكراهات العصر أو خصوصيات القطر، كل قطر من أقطار المسلمين.

وموضوع جميع ما كتب الأستاذ المرشد عبد السلام ياسين، بل وجميع مواعظه وخطبه وما إليه يدعو الناس، إنما يدور على

(1) ص 28 من هذا الكتاب.

التوبة وحولها يدندن. والتوبة إنما هي أوبة وعودة، أوبة كل فرد إلى مولاه وعودة أمة حبيب الله محمد صلى الله عليه وسلم إلى دينها وشريعة نبيها. ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (سورة النور،31).

فما أكثر ما كان يردد حفظه الله في المجالس ولا يزال: «إن سئلتم من أنتم فقولوا: نحن جماعة تتوب إلى الله وتدعو الناس إلى التوبة».

فالمؤلف من طينة الرجال الذين سكنت التوبة كيانهم، فلا يكتفي بالمداومة على ممارستها في نفسه، مقتديا بمن قال: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة**»[1] عليه الصلاة والسلام، وإنما همه وسعادته في أن يمكن منها غيره، وكما ذكر ذلك في كتابه حوار الماضي والمستقبل: «... وهَمِّي الثاني أن يقرأ فاضلٌ سياسيٌّ، أو مثقفٌ دأْبُهُ الفضولُ العلميُّ، وحِرفتُه الإنصاف، جُملة تذكِر، أو صفحةً توقظ. فسعادتي حينئِذٍ مُكتملةٌ إن بارك الله في كلمتي وجملتي ففزتُ بالوعد النبوي، ودخَلتُ في مشهَدٍ سَعَادِي مع الإمام علي كرَّم الله وجهه الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لأن يهديَ الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمر النّعَمِ**»[2].

وهذا ما نقف عليه عند تصفح مراحل حياته، كما نلمسه عند قراءة صفحات مؤلفاته، وقد تجاوزت العشرة آلاف صفحة. ولكم أن تتصوروا ثمانينيا خصص خمسة عقود من حياته أو أكثر من العمل الدؤوب والشغل الشاغل والجهد الجهيد، في أمر وحيد. فعنه يكتب وإليه يرشد، سواء عند تنظيره لأنظمة الدولة أو دراسته لتاريخ المسلمين أو عند تخطيطه لمستقبل دولتهم، دولة القرآن، أو في محاورته

---

(1) رواه ابن ماجه وابن السني رحمهما الله عن حُذيفةَ رضي اللهّ عنه.

(2) مقتطف من فصل «وإنما لكل امرئ ما نوى» من كتاب «حوار الماضي والمستقبل».

«الفضلاء الديمقراطيين» أو «الأصدقاء الأمازيغيين» أو عند محاججة العقلانيين، أو منازلة فكر القوميين العلمانيين، أو مناقشة فلسفة الشيوعيين تنظيرا وتطبيقا. كما نجد موضوع التوبة إلى الله والإنابة إليه تلخص مضامين رسائله إلى الحاكمين، من سبق منهم ومن لحق.

ثم إن ما كتبه باللغة الأجنبية، أو نظمه شعرا يعارض به الأقدمين من الشعراء والمحدثين، لا تكاد تجده يحيد في مراميه أو يبتعد في مقاصده، عن موضوع الفرار إلى الله ومعرفته وإسلاس القياد لأمره ونهيه، لعل الله عز وعلا يجعل ممن قرأ له أو سمع منه أو اجتمع به وصاحبه، محسنا يعبد الله كأنه يراه، مستجيبا لأمر الله البين الدلالة الوارد في الآية المحكمة **﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾** (سورة النحل، 90).

وهذه الآية التي ربطت العدل بالإحسان وربطت الإحسان بالعدل، إذ أمر الله بهما معا، معطوفين بعضهما على بعض، اختيرت شعارا للجماعة التي بذر بذرتها فباركها الله فقواها وأظهرها، تجدها هيمنت على فكر المرشد وكتاباته. فتقرأ كتاب «العدل»، وموضوعه سياسي بامتياز، إذ يعالج قضية الإسلاميين والحكم، أو كتاب «تنوير المؤمنات» ومن عنوانه نفهم أن موضوعه قضية المرأة في الإسلام وموقعها في التحزب لله ورسوله، أو كتاب «المنهاج النبوي تربية وتنظيما وزحفا» ذلك الدليل المسطري لتنظيم الجماعة على مستوى كل قطر، فتجد نفسك تقرأ لجهبذ من جهابذة التزكية، لأن ما من صفحة من الصفحات إلا وهي تدعوك لتتعرف على الله وتبادر التوبة إليه.

وبالمقابل، تقرأ كتاب «الإحسان» وموضوعه السلوك إلى الله والعروج إليه والإذعان، فتجده يحدثك عن الجهاد والعدل في القسمة

والتحزب لله ونبذ الخمول والدروشة والانزواء، بل يدعوك لرفع همتك للنموذج الأعلى، نموذج إمام العارفين ونبراس طريق السالكين محمد صلى الله عليه وسلم، وصحبه الغر الميامين، رهبان الليل وفرسان النهار، رضي الله عنهم أجمعين.

فلا غرو إذن، أن استعصت جماعة العدل والإحسان، وهو مرشدها ومؤسسها، عن التصنيف، وخرجت عن المألوف، فكانت نسيج وحدها، تحيي المثال الرائع الذي مثله الصحابة في عهد النبوة وعهود الخلافة على منهاجها في العقود الأولى لأمة الإسلام. نقول هذا ولا نزكي على الله أحدا، هو أعلم بمن اتقى.

والأستاذ عبد السلام ياسين، على كثرة ما خطت يمينه، ليس محترفا للكتابة ممتهنا إياها، وإنما هو صاحب رسالة، يكتب ويخطب ويحاضر ليؤديها. فهو يقول عن كتاباته: «...على أنني لست ببغائي المحتد، بل أحيى معاني ما أكتب بلحمي ودمي وروحي وعقلي». كما أن غالب ما يكتبه إنما يكون في أفضل الأوقات، في جوف الليل، يلتمس بركات تلك السويعات. فلا عجب كذلك ولا غرابة، أن تدمع عيناك وأنت تقرأ كتابا له. وأسوق هنا شهادتي أبلغها ولا أكتمها، وأعوذ بالله من التزيد والافتراء، كما أعوذ به سبحانه من الفخر والرياء. فقد دمعت عيناي ورق قلبي وعبقت بالأشواق روحي مرارا، وأنا أقرأ كتبه على اختلاف مواضيعها.

دمعت عيناي وحصل لي ما ذكرت من حال، عند قراءتي «الإحسان» وعند قراءة «تنوير المؤمنات» و«المنهاج النبوي» و«رجال القومة والإصلاح» و«إمامة الأمة» وغيرها... وأعيد القراءة بعد مدة فتعود العبرة للسكب وتعود الرقة للقلب. هذه الحالة وقعت لي كذلك وأنا أقرأ هذا الكتاب الذي شرفني الإخوة في مجلس الإرشاد

عندما طلبوا إلي أن أقوم بالتقديم له، ولم يجد معهم اعتذاري نفعا، ولم تشفع لي عندهم هيبتي واستحيائي من أن أقدم لمثل هذا الرجل الأمة، فتوكلت على الله وسألته العون والسداد، وأجبت طلبتهم، فما لأمثالهم يرد طلب.

وبعد، فإن المسلم، وعلى مرور الأعوام وتوالي الأجيال، وهو يتلو كتاب الله ويستمع إلى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليسمع بشارات تتوق إليها مهجته ونذارات ينفطر لها قلبه. بشارات من قبيل قوله تعالى في سورة النور: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾ (الآية: 55) ومن شاكلة: «**إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[1]، فينفخ فيها روحا غضة طرية، ونذارات كالتي نقرؤها في الحديث الذي اعتمده المؤلف من جملة ما اعتمد في هذا الكتاب، المروي عن ابن عمر رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من خرج من الجماعة قَيْدَ شِبْرٍ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عُنقه حتى يُراجِعَه. ومن مات وليس عليه إمَامَةٌ وجماعة، فإن مَوْتته مَوتة جاهلية**»[2]. فتتفاعل مع هذه البشارات وتلكم النذارات في كل زمان، قلوب وأفئدة، فتعمل، خوفا وطمعا، عسى الله -أن يجدد بعملها وقيامها لتنفيذ أمره- الدين، وأن يقيها -بتحزبها لله ووضع يدها في أيدي أحبابه- شر الميتة الجاهلية.

لكن «يستعمل بعض شباب الدعوة هذه الأحاديث وأمثالها يُسْنِدون بها زعمهم أن تنظيمهم هو «جماعة المسلمين». وكل من خرج

---

(1) أخرجه أبو داود رحمه الله في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(2) أخرجه الحاكم رحمه الله، وقال: صحيح على شرط الشيخين رحمهما الله.

عنهم هالك. صبيانية ما تستحق أن نشير إليها عابرين لو لم تترتب عليها بلبلة كبيرة»[1].

ويوضح المؤلف معنى «جماعة المسلمين» التي هي موضوع هذا الكتاب بقوله في الفصل الثالث، فقرة «النواظم الثلاث للجماعة»: «لا يصح إطلاق اسم «جماعة المسلمين» واسم «أمير المؤمنين» إلا عندما يتأتى إجماع علماء الأمة المهاجرين الأنصار، ومن ورائهم سوادُ الأمة مُوافقاً مؤيدا، على هيئة إسلامية ولو تعددت في إطارها التنظيمات، ويختارون رجلا واحدا، يؤم أمة الإسلام في كل دار الإسلام. فإذا استقر هذا في ذهننا فالانتماء المنجي هو الانتماء إلى تلك الجماعة التي لا تزال في طي الغيب انتماء الوَلاَء، وانتماءَ التهيُّؤ، وانتماءَ تركيزِ الجهود للوصول إليها. فذلك هو الانتماء الـمُنْجي من الميتة الجاهلية»[2].

فما هي جماعة المسلمين ؟ ومن يؤمها ؟ وما أمر جماعات الدعوة المنتشرة في بلاد المسلمين كما جزأها تكالب الملك العاض والجبري على الحكم، وجزأها بعدهم الاستعمار الذي لم تسلم منه إلا أقاليم محدودة من أقاليم دار الإسلام ؟ وكيف ترتبط تنظيميا فيما بينها داخل القطر الواحد وعلى صعيد أوسع ؟ ولأي تنظيم أعطي ولائي ؟ ثم ما هو نوع الولاية التي يلزم أن تربط التنظيمات الإسلامية بعضها ببعض ؟ أسئلة أدعوك أيها القارئ الكريم للاستماع إلى الأستاذ عبد السلام ياسين وهو يفصل في هذا الكتاب الإجابة عنها، ضمن مواضيع أخرى تشكل حلقة إضافية لمنظوره المتكامل لـ«دولة القرآن»، ذلكم الكتاب الذي ألفه في بداية قرننا الخامس عشر (بداية ثمانينيات القرن

(1) ص68 من هذا الكتاب.
(2) ص79 من هذا الكتاب.

العشرين بتاريخ النصارى) وتنشر أجزاؤه تباعا[3]. وأرجو أن يضع القارئ الكريم كلام الأستاذ عبد السلام ياسين، وهو يعالج أمورا من تاريخ المسلمين المعاصر، في سياق هذه الفترة الزمنية، أي منذ ثلاثين سنة خلت.

حفظ الله الأستاذ المرشد وأجزل له العطاء، وحفظ معه الخلص من العلماء، ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ الله وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً**﴾ (سورة الأحزاب،39) وجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وصلى الله وسلم على النبي المجتبى، الرحمة المهداة والنعمة المسداة سيدنا محمد وآله وصحبه وإخوانه وحزبه.

وحرره بالرباط ليلة الجمعة 5 من محرم الحرام
لسنة 1432هـ الموافق للعاشر من ديسمبر 2010م،
الفقير إلى مولاه الراجي عفوه ورضاه:
أبو بكر بن الحسن ابن الصديق.

---

(3) صدر لحد الساعة الأجزاء التالية:-1 في الاقتصاد: البواعث الإيمانية والضوابط الشرعية، -2 رجال القومة والإصلاح، -3 الخلافة والملك، -4 مقدمات لمستقبل الإسلام، -5 إمامة الأمة، -6 القرآن والنبوة، -7 جماعة المسلمين ورابطتها.

الفصل الأول

الدعوة والدولة



- السلطان يقاتل القرآن
- الثنائي الجهنمي
- قيام الدين بالقسط
- معلمون
- رُعاة لا جباة
- العلماء الأمراء
- وازعا القرآن والسلطان
- عبادةُ النفس
- الكيان المعنويُّ للدولة
- السلطانُ النصيرُ
- الإيمان والشريعة
- دولة رسالة

السلطان يقاتل القرآن

حديث شريف نعيد كتابته لأنه مفتاحُ هذا الباب، مفتاح باب الدولة القرآنية. روى عبدُ بن حميد رحمه الله عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**خُذوا العطاءَ ما كان عطاءً، فإذا كان رَشوة عن دينكم فلا تأخذوه. ولن تتركوه! يمنعكم من ذلك الفقرُ والمخافة! إن بني ياجوج قد جاؤوا. وإنَّ رحى الإسلام ستدور، فحيثما دار القرآن فدوروا به. يوشك السلطان والقرآن أن يقتتلا ويتفرقا. فإنه سيكون عليكم ملوكٌ يحكمون لكم بحكم، ولهم بغيره. فإن أطعتموهم أضلوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم**». قالوا: يا رسول الله! فكيف بنا إن أدركنا ذلك؟ قال: «**تكونوا كأصحاب عيسى، نُشرُوا بالمناشير ورُفعوا على الخشب. موتٌ في طاعة خيرٌ من حياة في معصية**». الحديث. نقله السيوطي في «الدر المنثور» في تفسير قوله تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾ (سورة المائدة، 78) وعزاه في «الجامع الصغير» للبخاري رحمه الله في تاريخه وأبي داود رحمه الله وصححه مختصرا هكذا: عن ذي الزوائد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا تجاحَفَتْ قريش بينها الـمُلْكَ وصار العطاءُ رِشاءً عن دينكم فدعوه**».

يُفيدنا هذا الحديث المهم فوائد جمة منها:

1. أن قريشا تتجاحَفُ الملك، أي تصل إليه وتتنازعه بإجْحافٍ وظلم.
2. أن رحا الإسلام، أي تاريخَه، ستدور، أي تتحول عما كانت عليه من الوضع النبوي والراشد.

3. أن الملوك يحكمون بميزان الإجحاف فيستأثرون بالنصيب الأكبر ويتركون لنا الفُتات.
4. أنهم يرشون الناس ليسكتوا عن دينهم ويدوروا مع السلطان لا مع القرآن.
5. أنهم يقاتلون القرآن، ومن جملة وسائل قتاله صرفُ العطاء مصارف تَكُمُّ الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.
6. أن واجبنا إن قاتَل السلطانُ القرآن أن ننصر القرآن ونقاوم ولو أن نُنْشَرَ بالمناشير.
7. أن الموت في مقاومة السلطان الجائر الذي يقاتل القرآن موت في سبيل الله.

في هذا الكتاب نريد أن نبين إن شاء الله أن دولة القرآن ونظامها هيكل لِسَكَنِ جند الله، وآلةٌ في أيديهم، ودرع لحمايتهم. وأن دولةً شكلية مصبوغةً بطِلاء الإسلام، مزينة بعناوينه، زورٌ وعبَث إن لم يكن جند الله الذين باعوا أنفسهم لله، وعولوا على الموت في سبيل الله، وربطوا مصيرهم الأخروي بمصير أمتهم ومستقبل عزها، هم مؤسسيها، وبناتها، وحماتها، وظاهرها، وباطنها. نخشى أن يغتر المسلمون بالصيغة العصرية لقتال السلطان القرآن، وهي صيغة «الإسلام الأمريكي» أو «اليسار الإسلامي». وقد يُلهون الناسَ ويَرْشونهم للسكوت على التزييف بالدولارات النفطية وأحكام قطع السارق تطبق على البؤساء من غيرهم. قد يُغدِقون العطاءَ حيث لا ينفع التهديد. وقد يعزمون على تغليب جانب الرشوة، واستقطاب الدعوة واحتوائها، بعد المجازر الرهيبة التي استشهِد فيها صفوة الرجال في مصر والشام وغيرهما. وقد يخترعون أساليب أخرى شيطانية لقتال القرآن وأهل القرآن. وإنهم لمتجندون لذلك. خبراءُ عاكفون على

دراسة الأوضاع في بلاد الإسلام، نابشون عن كل صغيرة وكبيرة تخص الدعاة. يجمعون المعلومات، يدسون جواسيسهم بالمسواك والجلباب واللحية، ويمولون المؤسسات المتخصصة باسم معاهد للتعارف بين الإسلام والغرب، وباسم جمعيات صداقة، وباسم مؤتمرات يعمر أسواقها المحترفون، ويغشاها أيضا الصادقون منا ليبلغوا الدعوة وهم عن خفايا اللعبة غافلون. حذار !

قتال القرآن أمسِ الدّابرَ بالرشوة والقمع، بمِنح الملوك ومِحنهم للدعاة كان قتالا بسيطا ببساطة وسائله. وهو اليوم حرب مجهزة بأحدث أساليب المكر والاغتيال والتآمر.

الثنائي الجهنمي

لا ينتظر أعداء الله قيامَ دولة القرآن ليناوشوها الحرب، بل هم سعوا بتفتيت آخر نواة كانت تمثل دولة الإسلام في العالم وهي الدولة العثمانية. دخلوا ذلك الهيكل تسربا من نوافذ اليهود أهل الذمة الذين خانوا الذمة، وتسربوا بالاستعمار والغزو للأرض والفكر، والتفوا علينا التفاف أَكَلَةِ القصعة، وتقاسموا طعامَها وإدامها. والحربُ الصليبية اليهودية علينا تزداد ضراوة بعد أن ترشح لنادِيهم، وتجند في عسكرهم، دعاة جهنم من بني جلدتنا.

حرب مباشرة اليوم ضد الصحوة الإسلامية، فرق عسكرية تدرب للتدخل السريع، ودعاية متخصصة تشوهُ الحركة الإسلامية، وتلفق البهتان لتفسد سمعة الدعاة، وتُعَمِّي أخبار المؤمنين عن الأمة. حرب سافرة أظهرت كَوامِنَ الحقد الصليبي اليهودي. كانت الحروب الصليبية التي قادها ضدنا فرسان أوربا ورهبانُها ثلاثة قرون بالسيف

والرمح وحرق الزروع هجوما خارجيا. كان الملوك علينا وجوها منا في الجملة، بل كان أفاضلُهم دعاة وحماة للحق، رحم الله ابن زنكي وصلاح الدين وابن تاشفين وأمثالهم من رجالنا. أما اليوم فسلطان الدولة عندنا أصبح في أيدي الأعداء. كانت ملوك قريش يتنازعونها إجحافا وتظالما فيما بيننا، لكن دعاة جهنم اليوم، من أتاتورك إلى ببراك، يسلمون السلطان لألد أعداء القرآن.

منذ أن انتهت الحروب الصليبية بخروج النصارى من فلسطين والشام، وخروج المسلمين من الأندلس، اتخذت الحرب ضد الإسلام أشكالا أخطرها: الماسونية والعلمانية.

1 . فأما الماسونية فكانت ولا تزال تنظيما يهوديا سريا، يحاط بطقوس وشارات ومراتب وحفلات تهوِّل «أسرار» الكنيسة الماسونية، وتخلُب الألباب الطائشة. والدعاية الرسمية التي تنطلي على أعضاء الماسونية الثانويين، من غير اليهود القادة، هي أن الأديان تُفَرِّقُ، وأن الإنسانية تجمع، فلتكنْ الرابطةُ الجامعةُ الأسْمَى رابطة الإنسانية تغاضيا عن كل دين. هذه الخُدعة الماسونية تضرب بجذورها في أعماق تاريخ الكيد اليهودي. وقد تفرعت اليوم في نوادي اللاَّيُّونز والرُّوتاري والجمعيات الخيرية في زعمها. مكنت هذه الخُدعة يهودَ أوربا المحتَقَرين، خصماء الكنيسة، طرداء المجتمع، أن يرفعوا بفضل شبكة «اللوجات» (هذا هو الاسم الفرنجي لكنائسهم) إلى مرتبة وشرف المواطنين النصارى. ثم تمكنوا من اجتذاب الطبقة الراقية إلى حفلاتهم المشعوذة، واتخذوا من بينهم أنصارا تسلقوا بواسطتهم إلى أكناف السلطة، حيث وجدوا ملاجئ واقية، تعاطَوْا في ظلها الـمُراباة، وجمعوا الأموال لإنجاح مشروعهم الرامي للسيادة في الأرض، كما تفصل ذلك بروتوكولات حكماء صهيون. وهو كتاب يجب أن يقرأه

المسلمون ليعرفوا بالحجة التاريخية لِمَ لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان كل مؤمن بالله.

في أرجاء بلادنا اليوم نوادٍ ماسونية تنال المعونة والحماية وشرف الاعتبار من لدن الطبقة المترفة من كبار الموظفين، والوزراء، والأثرياء، والمثقفين. فيما مضى سقط في شَرَكِ الماسونية رجال ملأوا سمع المسلمين، وشغلوا حياتهم زمانا من أمثال الأفغاني وجماعتِه ومحمد عبده وتلامذته، الظن بأولئك الرواد أنهم صادقون غرَّهم اليهود وخدعوهم. الظن بمحمد عبده في حِلفه مع المحتل الإنجليزي كرومر ضد الخديوي عباس أنه عالِمٌ اجتهد. حدث كل ذلك في فترة كانت خبرة المسلمين فيها بكيد اليهود قليلة. أما اليوم فعِلْيَةُ المترفين فينا يتشرفون بالانتماء لنوادي الماسونية، وقد لا يعلمون أنهم من كتائب يهود.

2. أما الشكل الثاني لحرب الإسلام، فهو حرب القومية العلمانية. هدف الماسونية تجريد الناس من الدين أفرادا، وهدف القومية العلمانية تجريدهم منه جملة. تعني العلمانية فصل الدين عن الدولة. وتعني حين تقترن بالقومية، وهي لا تنفصل عنها، فصل أجزاء البلاد الإسلامية وشعوبها بعضها عن بعض، لتنخرم الوحدة على الدين وبالدين. وقد أصبحت العلمانية في أذهان عامة المسلمين ومثقفيهم أمرا طبيعيا مفروغا منه. نسيت الخلافة الإسلامية وما ترمز إليه من وحدة المسلمين وارتباط دولتهم بدينهم. كان المارق أتاتورك مسيلمة العلمانية يبشر بها، وكان حزبه تتارَها الذين خربوا دولة آل عثمان الرمز والشوكة.

هتان الآلتان الحربيتان، الماسونية والعلمانية القومية، نشأتا في أوربا بتحريك اليهود. وكانت العلمانية دعوة للتمرد على الكنيسة حليفة الدولة الأوربية وشيختها. فلما تكونت طبقة البرجوازية الأوربية،

وثارت على «النبلاء» وملوكهم، رفعت علَم فصل الله عن الدولة، وقتلت الملوك، فعوضتهم برؤساءَ لا يدينون للكنيسة بوَلاء. ساندت الكنيسة الظلم الطبقي، فهوت مع هُوِيِّه. وفضح الثوار تعفُّن الكنيسة، وتجارتها في الدين، وفسق رهبانها، فوصموا كلمة الدين بوصمة العار حتى أصبحت مرادفة لكل معاني الفساد. وكذلك كان «دين» الكنيسة ولا يزال. ثم ترجم المغربون من أبنائنا ذلك التاريخ العدائي بين العدالة والمروءة والشرف وبين الكنيسة، إلى لغة سياسية تدعو إلى فصل الدين عن الدولة لأن الدين فساد. جهلوا الإسلامَ فقارنوه بالنصرانية، وجهلوا أن لا كنيسة في الإسلام فعمدوا إلى رمز أثريٍّ، كان يؤدي مهمته على كل حال، فخربوا «الخلافة» العثمانية. ولعل لله سبحانه وتعالى حكمةً بالغةً في هذه الثغرة التاريخية العلمانية التي نعيشها. لعل الانتقال المباشر من عهد «الخلافة» العثمانية المرحومة، وهي ملك عاض محضٌ، إلى عهد الخلافة الثانية على منهاج النبوة التي نرتجيها نُقلةٌ لا تقبلها الأمة وقد فُطِمَتِ الأجيال على التعلق بأسرة حاكمة وتاريخ. كان لا بد من هذه الفجوة التي ظهر فيها الملكُ الجبريةُ على الساحة، واختلس الحكم فيها دعاةُ جهنم ليبلغ الشرُّ إلى مداه، ولتكره الأمة أنصاف الحلول، فيعودَ العهد الراشد. اللهم أنجز لنا ما وعدتنا، تباركت وتعاليت ربنا.

قيام الدين بالقسط

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رحمه الله: «المقصود أن يكون الدين كله لله، وأنْ تكون كلمة الله هي العليا. وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تَضَمَّنَها كتابه. وهكذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا

رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد، 25) فالمقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، أن يقوم الناس بالقسط في حقوق الله وحقوق خلقه»[1].

يعني هذا أن تجيب دولة القرآن عن كل الأسئلة التي طرحها المتلهفون على الحرية من بني الإسلام وبني الإنسان، وعن كل الأسئلة التي يطرحها الغاضبون على الظالم من بني الإسلام وبني الإنسان. فتقنعهم بأن الدين الحق لا يقبل أن يستعبد الإنسان الإنسان ولا أن يظلمه. وبعد الإقناع بالحجة المنطقية ينتظر بنو الإسلام وبنو الإنسان أن يروا حجة عملية تقنعهم بأن الإسلام فعلا قادر على تحرير الإنسان وإنصافه. هنالك في العالم أنظمة لبرالية علمانية وأخرى اشتراكية ماركسية أو غير ماركسية تسير، تحل مشاكل الاقتصاد والاجتماع على أسلوبها. لكنها جميعا تسيرُ. والإسلام شرع في كتاب، والدول الحاكمة على المسلمين لا تعمل به. من عدل عن الكتاب ؟ وكيف عدل ؟ وكيف تعود الأمة إلى كتابها ؟

معلمون

بعث الله سبحانه وتعالى الرسل مبشرين ومنذرين بين يدي الآخرة. هذه مهمتهم. والسيرةُ النبوية كلها دعوة وبِشارة ونَذَارةٌ بما بعد الموت. وكذلك كان الخلفاء الراشدون. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لجيش كَتَبُوا إليه يطلبون الـمَدَدَ: «إن أهمَّ أمركم عندي الصلاةُ». وكان فعلا جُهدُ الدولة على عهده لا ينحصر في فتح البلاد

(1) الفتاوي ج28 ص 263–264.

وتنظيم إدارتها، بل كان الفتح والتنظيم مقدمةً لبث الدعوة وتعليم الناس دينَهم. نقل المستشرق أرنولد عن المسعودي المعلومات التالية، ونقله اعتراف من أحد ألد أعداء الإسلام وأدهاهم. قال: «وقد أَمَدَّ الخليفةُ هؤلاء الذين دخلوا حديثا في الإسلام بما ينبغي أن يُمِدَّهم به عُلَمَاءَ يلقنونهم مبادئ الدين. لأنه لَمَّا كانت القبائل بأجمعها تدخل في الإسلام بمثل هذه السرعة كان من الضروري أن يأخذوا الحِيطَةَ اتقاءَ ما يحدث من أخطاء، سواء من ناحية العقيدة أو الشعائر الدينية. وكان من الطبيعي أن تكون هذه الأخطاءُ مصدرَ خوف إذا ما تُرِكَ هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام لا يعرفون تعاليم هذا الدين معرفة صحيحة. ومن ثَم نرى الخليفة عمر يعين في كل بلد معلمين مِهْنتُهم أن يعلموا الناس القرآن ويفقهوهم في الدين. وكذلك أمر العمال أن يستيقنوا من أن جميع المسلمين صغاراً وكباراً يواظبون على حضور صلاة الجماعة لا سيما في أيام الجُمَع وفي شهر رمضان. ونستطيع أن نحكم على ما كان لتفقيه من دخلوا في الإسلام حديثا من أهمية من أن هؤلاء الذين عَهِدَ إليهم بهذا العمل في مدينة الكوفة كانت شخصيتهم لا تقل عن شخصية من عهد إليهم بالولاية على بيت المال»[1].

رعاة لا جباة

قد تشغل الولايةُ على الأرض والمال والإدارة الحاكمَ عن مهمته الأولى وهي الدعوة. فلذلك نجد التنبيهَ الدائم إلى الحكام يصدر عن الخلفاء. روى الطبري رحمه الله أن عثمان رضي الله عنه كتب إلى عماله، قال: «أما بعدُ فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رُعاةً، ولم يتقدم

(1) الدعوة إلى الإسلام، ص69.

إليهم أن يكونوا جُباة. وإن صدرَ هذه الأمة خُلِقُوا رُعاةً ولم يُخلقوا جُباة. ولَيوشِكَنَّ أئمتُكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإذا عادوا كذلك انقطع الحياءُ والأمانة والوفاء. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم، فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم. ثم تُثَنّوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم. ثم العدوُّ الذي تَنْتابون. فاستفتحوا عليهم بالوفاء».

حرص على العدل مع الرعية لكيلا ينقطع الحياء والأمانة والوفاء. هدف تربوي ديني أخلاقي.

العلماء الأمراء

كان من الصحابة الفاتحين الفقيهُ والأقلُّ فقها. يتولى عالمهم الدعوة ويتفرغ الآخرون للقتال والأموال والإدارة. تَخَصُّصٌ في الوظيفة أملاه التوسُّعُ السريعُ. كان من ولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جمع بين وظيفتي الدعوة والإمارة كالإمام علي وأبي موسى ومعاذٍ رضي الله عنهم حين بعثهم إلى اليمن. ومنهم من كان واليَ دعوة كمُصْعَبٍ رضي الله عنه في المدينة قبل الهجرة. ومنهم من كان واليَ إمارة قليلِ العلم كَعَتَّاب بن أسيد رضي الله عنه الشاب حديث العهد بالإسلام، نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة بعد فتحها، ونصب معه معاذ بن جبل معلما متفرغا للدعوة.

وينحدر التاريخ إلى الملك، ويزداد التوسع، ويتأمَّرُ أصحابُ السيف، وتتكون طبقة العلماء وأصناف الدعاة والفقهاء والمفتين فيجدون مكاناً لهم في الدولة لضرورة وظائفهم. وينالون من احترام الدولة للحرمة التي تُكنُّها لهم الأمة. لكنَّ اليد الطولى كانت للسيف. وما كان لأحد من معلمي الخير ومشايخ الإسلام أن يقترب فأحرى

أن يتساوى مع أمير السلطان كما كان الأمر في عهد النبوة والخلافة. وأكثر ما كانت الدعوة تحت الملك تطوعا وائتمارا للواجب الديني الذي أناط بالعلماء أن يُؤَدوا أمانَةَ التبليغ والهداية والإرشاد. وكان للدعاة حدود محدودة لا يتعدونها إلى نقد الحكم إلاّ وتُصيبهم منه قارعة. بل كان دُعاة الدولة وأهلُ الدعاية لها محترفين منظمين كما كان الشأنُ في الدولة الفاطمية.

هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يعطينا صورة عن الازدواجية بين أهل الدعوة وأمراء الدولة. قال: «وقد أمر الله في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (سورة النساء، 59). وأولو الأمر أصحابُ الأمر وذَوُوهُ، وهم الذين يأمرون الناس. وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهلُ العلم والكلام. فلهذا كان أولو الأمر صِنفين: العلماءُ والأمراء. فإذا صلُحوا صلُح الناس. وإذا فسدوا فسد الناس. كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأَحْمَسية لما سألته: ما بقاؤنا على هذا الأمر ؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم. ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان. وكل من كان متبوعا فإنه من أولي الأمر. وعلى كل واحد من هؤلاء أن يأمر بما أمر الله به»[1].

وازعا القرآن والسلطان

انشقاق بين الدعوة والدولة. فمن جانب «أهل اليد والقدرة»، ومن الجانب الآخر «أهل العلم والكلام». هؤلاء يأمرون، وأولئك

(1) الفتاوي ج28، ص 170.

يأمرون. فإذا اختلف أمر «الصنفين» كما يعبر ابن تيمية فالعالم صاحب كلام، ما عليه إلا أن يغير المنكر بلسانه، أو يلجأ إلى أَضْعَفِ الإيمان فيكتفي بإنكار القلب. كان «المتبوعون» من المشايخ والعلماء العاملين يعيشون خارج إطار الدولة. وما كان يأتيهم من مساعدة الأمراء لا يعدو أن يكون «إحسانا» وصدقة، كبناء مدرسة أو عطاء أو منحة. أصبحت الدعوة تحت إمارة السيف تابعة مكفولة كما يُكْفَل اليتيم. قد يكون الأمير الكافلُ صالحا يحب الصالحين، وهناك أمثلة كثيرة لهذا، وقد يكون أرعن سَاطياً يُعذب العلماءَ كالمأمون، أو عدوّاً لله ورسوله يحارب الإسلام ويسفك دماء رجال الدعوة كفاروق والعبد الخاسر ومن قبلهما أتاتورك، وغيرهم من الدعاة على أبواب جهنم.

انشق وازعا القرآن والسلطان بعضُهما عن بعض بعدما كانا متحدي الوِجهة والمصدر في عهد النبوة والخلافة. من مشهور كلام عثمان رضي الله عنه: «لَمَا يَزع الله بالسلطان، أكثرُ مما يزعُ بالقرآن». تعني هذه الكلمة الحكيمة أنّ عامة الناس وأكثريتهم لا يخضعون للدعوة مثلما يخضعون للسلطان. لا تتحكم في حياتهم بواعث الخوف من الله عز وجل مثلما تتحكم فيها بواعث الخوف من الناس. والمنطق الذي يصدرُ عنه رجل دعوة مثلُ الإمام عثمان رضي الله عنه هو أن يُعْتَمَدَ وازعُ السلطان ليكون رادعا لمن يخالف تعليم القرآن.

عبادة النفس

أما إن كان المستولي على السلطان من صنف أصحاب «اليد والقدرة»، حاملَ سيف لا حاملَ رسالة، فإنه لا يستعمل السلطان ليزَعَ به من يخالف القرآن، لكن يستعمله ليوطد أركان

«قدرته»، ويسخره لنصر نفسه. وما يُفسدُ الدولةَ مثلُ أنانيةِ الحكام وإعجابِهم بذاتهم ورأيِهم، وانتفاشهم على الناس. وهذه هي معاني الاستكبار. فكما كان المستكبرون أعداءَ الرسالات، انقلب حكام «اليد والقدرة» مستكبرين على الدعوة، فقاتلوا القرآن. في تعبير ابن تيمية رحمه الله بأهل «اليد والقدرة» نظر إلى الحديث النبوي: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]. فالمفروض أن الأمراء يقدرون على تغيير المنكر باليد. فهم قدرة ويد. لكنهم أهلُ منكر أساسا لأنهم متسلطون منذ أصبحت ملكا عاضا. فمن أين يبدأ تغيير المنكر ؟ هؤلاء أمراء نصبوا أنفسهم بأنفسهم، فسيِّدُهُم النفسُ المنتفخَةُ كبرياءَ. كبرياءُ الأنانية الفردية تَرْكَبُ كبرياء الطبقة المستعلية. والإسلام دعوة المستضعفين الخاشعين لله المتواضعين لعباده، شأنَ الرُّسُلِ وخلفاءِ الرسل.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «كان خلفاء الرسل وأتباعُهم من أمراءِ العدل وأتباعِهم وقضاتِهم لا يدْعون إلى تعظيم نفوسهم البتَّةَ. بل إلى تعظيم الله وحده، وإفراده بالعبودية والإلهية ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده. وكان بعضُ الصالحين يتولى القضاء ويقول: ألا أتولاه لأستعينَ به على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟». من يتحكم فيه هواه، ويبخلُ بنفسه في سبيل الله يُصبح طامة على المسلمين إن علا رقابَهم. ومن كان كل مُؤهلاتِه القوة العضلية والعسكريَّة، لم يتلق دعوة الحق، ولم يَتَرَبَّ بها، فأنى يفكرُ في خدمة دين الله ! يُضيفُ ابن رجب رحمه الله قائلا: «ولهذا كان الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذى في الدعوة إلى الله،

(1) رواه مسلم رحمه الله وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غايةَ المشقة وهم صابرون، بل راضون بذلك. فإن المحب ربما يتلذذ بما يصيبه من الأذى في رِضى محبوبه، كما كان عبد الملك بن عُمَرَ بن عبد العزيز (قلت: وكان صالحا ناصحا لأبيه) رحمه الله يقول لأبيه في خلافته إذا حرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل: يا أَبَتِ لَوَدِدْتُ أني غَلَت بي وبكَ القُدورُ في الله عز وجل. وقال بعض الصالحين: وددتُ أنَّ جسمي قُرِضَ بالمقاريض وأن هذا الخلق كلَّه أطاعوا الله عز وجل»[2].

إننا بصدد البحث عن رَأْبِ الصدع بين الدعوة والدولة في البناء المستقبل لدولة القرآن. فلا نَذْهَبْ تائهين في تصوُّر هياكل إسلامية بلا روح. وروحُ هذا الجسم، جسم الدولة، هي الدعوة التي تربي المؤمنين على هذه المثالية من بذل النفس والجُهْدِ كلِّهِ لله. فالبناء النفسيّ أساس ترتفع عليه هياكلُ الدولة القرآنية، وإلا كانت صنما وطاغوتا. يوَد الصالح لو يُقْرَضُ جسمُه، لو يفنى في العذاب، ويرتاحَ الخلقُ ويهتدون. هذا رجل دعوة، مِثْلُه مَنْ يُؤَمَّنُ على وِلايات المسلمين.

الكيان المعنوي للدولة

في دولة القرآن تحتل الغاية الإيمانية الإحسانية الصدارة، فتصطف السياسة، والاقتصاد، والثقافة، والتنظيم، وكل كبيرة وصغيرة في كل مجال من مجالات الحياة، في أماكنها النسبية، تأتمر كلها بأمر الدعوة. وتسعى كلها لنشر الدعوة. إنه قلبٌ للوضع الذي عاشته الدعوة منذ أصبح السلطان ملكا عاضا. أصبح السلطان العاض جابيا والدعوة تابعة، أصبح متصدرا والدعوة على الهامش، أصبح الأمراء هَمُّهم

(2) الرسائل المنيرية، المجلد الثاني، ص8.

الأولُ والأخير حفظ نظام ومصالح قائمة، أو إسقاط عَصَبية لإنجاح عصبية. على عهد السلطان الفاسدِ أصبحت الدعوةُ، ومراسيم الخلافة ومظاهرُها، لباسا يتزين به السلطانُ. وإنَّنِي إذ أعَمِّمُ مثلَ هذه الأحكام لا أنكر فضل ذوي الفضل، وكان منهم ملوك وأمراء. إنما أعمم الحكم على النظام نفسه الذي كان مربوطا بالسُّلالة والطبقة الحاكمة، إن غوت الطبقة والسلالة، وهذه هي القاعدة، ضاعت الأمة، وإن رشَد ملكٌ أو أمير أو وزير فأنَّى له أن يُصلح ما أفسدت الأجيال وأنَّى له أن يَخْرُجَ من رِبقة الملك !

إننا يا إخوتي بحاجة اليوم أن نصارح أنفسنا بحقائق فسادِ الحكم فينا بعد ثلاثين سنة من وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن لا نفعلْ ذلك فإن مستقبلنا يبقى في ضباب العاطفة الـمُجَنَّحة. وإنه ليُحَيِّرُ الحكيمَ أن يرى من كُتَّاب المسلمين وعلمائهم ودعاتهم اليومَ من لا يزال يُدافع عن «الخلافة» الأموية والعباسية والعثمانية. يدافع عن مشروعيتها فيلحقها بالخلافة الحق. وكأنَّ الأمة اختارت يزيد والوليد وغِلْمَةَ قريش. وكأن العض والجبر اللذين أخبر بهما الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم وشجبهما وعابهما لم يحدثا.

إن في ضعفنا الماضي ما كان يبرر هذه المواقف الدفاعية، وهذا التشبث بالرموز الموروثة. أحبطت الدولة العثمانية مؤامرات اليهود والنصارى، فكان إسقاطُها كارثةً على المسلمين لأنهم ألفُوا أن ينظروا إلى الآستانة كما يُنْظَرُ إلى قبلة الوحدة، ومحطِّ العزةِ للأمة. وكانت بالفعل كذلك لأنها على كل حال شوكةُ الإسلام وسلطانُه. واليوم وقد نشأت أجيال فتحت أعيُنَها وعقولَها على واقع صنعه الاستعمار وعلَّمَنَا أن نحترمه ونَعتبره الحالةَ الطبيعية، من تجزئة، وانفصال فِعْلي بين الدين والدولة، وتبعية سياسية

واقتصاديـة للجاهليـة، فـكل دفـاع عـن الــمُلْكِ العـاض والجبريِّ المـاضي إنــما هـو تبريـر للحكـم الجـبري القائـم واسـتلذاذ بالأوبئـة التـي نهكتنـا قرونا. حتـى أتت عـلى كياننا المعنـويِّ فتبعـه في الانهيار كيانُنـا السـياسيُّ الحضاريُّ.

إن المريض إذا دخل المستشفى على شرطِه هو لا على شرط الطبيب، فربما يمتنع أن يكشف الطبيب عن مرضه، وربما يقترح هو لعلاج نفسه أدوية هي عينُ السموم التي أودت بصحته. كذلك الأمة إن رفضت الكشف النبويَّ الذي يصف حالتنا بالغثائية وحالة حكمنا بالعض والجبر، ورفضت العلاجَ النبوي الذي يصف الرجوع إلى المنهاج النبوي في التربية والجهاد والحكم، فمن أين يأتيها الشفاء ؟

حافظَت شوكةُ الإسلام الأموية والعباسية والعثمانية وما بين ذلك وخلاله من إمارات على وحدة جسم الإسلام ولو وحدة رمزية. أما روح هذا الجسم وهو الإيمان والدعوة إلى الله فقد رافقتهما الشوكة فأحسنت الرفقة أو أساءتها بحسب رداءة الحكام وبحسب مواقف الدعاة قوةً أو ضَعفا. وكانت الدعوة في كل الحالات زينةً يتحلى بها أهلُ السيف، ويحرصون على مجاملة الأمة والتجمُّلِ لها بجمع العلماء على بساطهم إن لم يرفع العلماءُ الرأس أعلى مما تسمح إرادة السيف. وعندئذ فالبساط للجلد وضرب الأعناق.

كانت «إمارات الاستيلاء» البويهية والسلجوقية والغزنوية وسائر الإمارات العربية منها والعجمية تنضوي اسميا تحت صولجان «الخلافة» العباسية. ولها وحدها بعدُ الخفضُ والرفْعُ، والعطاءُ والمنعُ. فكأنَّ الخلافةَ سحابةٌ يُسْتَظَلُّ بظلها، بعيدةٌ مبعدةٌ، فارغةٌ مفْرغةٌ مما كان أساسَها ووظيفَتها وهو النيابة التامةُ عن رسول الله

صلى الله عليه وسلم. لما خربتْ بغدادُ على أيدي التتار، وتصدى لحرب الغزاة المماليك الشراكسةُ بمصرَ بقيادة قطز ثم بيبرس، ورث المماليكُ «الخلافة» فجاؤوا بها إلى مصر بعد انتصارهم بعين جالوت كبعض ما يُحْمَلُ من الغنائم. التمسوا رجُلا من قريش من بني العباس لقبوه «المستنصر بالله» ونصبوه ظلا، بل مِظلة، تأوي إلى هيبتها أفئدةُ المسلمين، فتغطي هيبةُ الدعوة المصنوعة نظامَ المماليكِ الدموي. وهنا أيضا أتحدث عن نظام المماليك لا عن الرجال. فمن المماليك أبطال وفرسان وأتقياء كما في غيرهم. ولما فتح السلطانُ سليمٌ العثماني مصر أَسَرَ «خليفة» الوقت وهو رجل يلقب «المتوكل على الله» وحمله معه إلى الآستانة. فانتزع منه «الخلافة» ولُقِّبَ أمير المؤمنين، فأضاف إلى ألقاب السلطنة الفخمة المفخمة هذا اللقب «الخليفي». أيُّ تشييء هذا للخلافة وأيّ لعب !

وهكذا انتقلت الخلافة من بغداد إلى مصر، ثم من مصر إلى الآستانة، وكأنها متاعٌ، وكأنها شيء مادي في وسع كل متسلط بالسيف أن يقتنيه. أصبحت «الخلافة» خرافة منفصلة عن الإيمان والأخلاق والعدل والشورى والاختيار. أصبحت خِرقة تُلْبَسُ على هوى الحاكم، ورَمْزاً يحمل بين يديه، ونشيدا يُرَنَّمُ في مآدبه. وبالفعل كانت البُردَةُ النبوية الشريفة، والقضيبُ النبويُّ، والشَّعْرُ النبويُّ، آثارا يتوارثها «الخلفاء» حتى آلت إلى بني عثمان. اتُّخِذَت هذه الآثارُ المباركةُ رمزا للخلافة، فكأنها طِلَّسْمات تُكْسِبُ الحائزَ عليها «سرَّ» الخلافة. لا جدالَ في أنَّ آثار الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يُتبَرَّكُ بها ويُرجَى للمتبَرِّكِ خيرُها. لكن أن تُتخذ أوثانا سياسية ! لكن أن يُربط بها في أذهان العامة قيمةٌ زائدة على قيمتها ! لكن أن يتمَسَّحَ بها المتسلط يُلْقي عليها أوزارَه !

السلطان النصير

لا تزال بين حكام الوقت بقايا من تلك الوثنية السياسية، وحتى عتاةُ المجرمين منهم رجعوا يَرْفعون شعارات الإسلام الأمريكي. ومهما أعطى حكامُ العض والجبر من مواثيقَ على أنهم «حماةُ الإسلام»، ومهما بنَوْا من مساجدَ، أو طبعوا من مصاحف، أو أرسلوا من بَعثاتٍ، فإنما هي أقنعةٌ يحاول اللِّصُّ أن يُخْفِيَ بها أنه سطا على أموال المسلمين وأرواحهم، واغتال مصيرَهم، وخان دعوةَ نبيهم. في مجتمعات الغُثاء والخمول يساوِم حكامُ الجبر بضائعَ التغرير فلا يجدون أرخصَ سَوْمَةً، ولا أخفَّ كُلْفَةً، من أن يعمِدوا إلى التفضُّل على الدعوة والتكرُّم بإغداق المِنَح. ويغتر الشعب الخاملُ فيَلْهَجُ بباني المسجد الفلانيِّ والمدرسة الفلانية والمبرة الفلانية. وتزداد وطأةُ الحاكم بذلك ووطأة بنيه وورثته من بعده. بهذا يستنصر السلطان بالقرآن، يتنازل السلطان فيهتم بالدعوة، يضع الدعوة إلى جانبه في أشخاص علماء القصور فتعتز بقربها منه، أو يضعها تحت إبطه في طي جلابيبه. يستنصر السلطانُ بالقرآن يتكئ عليه ليَظْهَرَ للأمة بمظهر أقوى مما يخوله طُروؤه على الأمة، وتسلُّطه عليها، وارتقاؤه على رقابها بغير رضاها. وفي كل هذه الحالات فالسلطان أصل والدعوة فرع، السلطانُ إمام والدعوة مأمومَة، السلطانُ سيد والدعوة تابعة.

والوضع في دولة القرآن الأولى التي سلفت، والثانية كما نرجوها من الله العلي العزيز، عكسُ هذا. يأتي السيف نصيراً للمصحف، تأتي الدولة طائعة لأمر الله، يأتي السلطان عبدا لله. كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مكة مُضْطَهَدا مغلوبا، فاستنصر الله عز وجل

وطلب إليه السلطانَ بوَحْيٍ أوحاه الله إليه. كانت دعوةً عزْلاَءَ فجاء السلطانُ سَلَّحَهَا، كانت مكشوفةً فدَرَّعَتْ بالسلطان، كانت جهودا فردية فنظمها السلطان، كانت تعيش على هامش السياسة الجاهلية، والاقتصاد الجاهلي، والمجتمع الجاهلي، وبين ثنايا الجاهلية، فأعطاها السلطانُ وجودا ماديا. أعطاها جسما هي كانت له الروح. أعطاها حرفا هي كانت له المعنى. أعطاها وسائل وهي كانت الغاية.

قال الله عز وجل يُخاطب عبده محمدا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ (سورة الإسراء، 80). أخرج الحاكمُ رحمه الله وصححه والبيهقي رحمه الله في «الدلائل» أن قتادة رضي الله عنه فسر هذه الآية كما يلي: قال: «أخرجه الله من مكة مُخرج صدق وأدخله المدينة مُدخَل صدق. وعلِمَ نبيُّ الله أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل سلطانا نصيرا لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه وإقامة كتاب الله تعالى. فإن السلطان عزةٌ من الله تعالى جعلها بين عباده. ولولا ذلك لأغار بعضهم على بعض، وأكلَ شديدُهم ضعيفَهم».

هاك من يدي مفسر محدث عالم تابعي جليل الوضعَ الصحيح للسُّلطان. إنه «عزة»، أيْ قوة، تستعمل لنصر كتاب الله وحدوده وفرائضه. تصور قرآني لم تعلق به أوضار التاريخ ولا نَكَّرَ معالمهُ غبارُ الخمول. قال الله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (سورة الحج، 40-41).

إن الله تعالى وضع عزة السلطان لكيلا يُغير بعضُ الناس على بعض، ولكيلا يأكلَ شديدُ القوم ضعيفَهم. حتى إذا استتب الأمن وتمكن السلطان في الأرض تميز سلطان الإسلام عن السلطان الطبيعي

بين البشر بكون سلطان الإسلام ينصر كتاب الله، وبكون المتمكنين في الأرض يقيمون الصلاة ويوتون الزكاة ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وكل أمورهم عاقبتُها لله. بينما دولة البشر المنقطعين عن الرسالة لا يعدو اهتمامها وسائلَ المعاش إلى الغايات الإيمانية. وهذا ميزانٌ تعرف به درجةُ انسلاخ دُوَيْلات العض والجبر في زماننا عن هذا الميثاق الإلهي. سائِلِ الحكامَ عن مذهبهم في السياسة، وعن مذهبهم في القسمة، وعن مذهبهم في مواجهة مشاكل الداخل والخارج، تجدْها لبرالية أو اشتراكية ثورية قومية أو رجعية محافظة كما يتنابزون بالألقاب. وانطلاقا من هذا فالشعار الإسلامي والطلاءُ الإسلامي أمور زائدة، «بِنْيات فوقية»، أو مناسبات، أو ألقاب، أو مؤتمرات، أو حتى تشريعات فرعية. التمكن في الأرض والعض على الأمة وسائلُ في نفسها وغايات. وعند النمو الاقتصادي الممتنِع المستحيل على يد حكام الجبر النهابين التائهين الضالين تنتهي المسيرة. صلاح الأمة، ونصر كتاب الله، وحمل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، لا تدخل في حساب.

الإيمان والشريعة

في هذه الدول المنسلخة عن الدعوة يُتْرَك أمرُ الصلاة والزكاة، وواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسائرُ مقتضيات الإيمان، وأحكامِ الشريعة وحدودِها وفرائضِها، في حَوْزَةِ الضمير الفردِّي، وتحت رعاية التقوى الفردية. لا يَعْني الدولةَ من كل ذلك إلا أن تبقى الصلاة والزكاة وسائر فرائض الإيمان في زاويتها الخاملة، لا تُحَرِّكُ ساكنا، بل تزيد القومَ نوما، وانعزالا، وتفرغا للحوقلة العاجزة

في أركان المساجد. فإن انتفض الإيمان في القلوب، وطالَبَ بالحكم بما أنزل الله، فهي الحرب بلا هوادة. والأدهى من هذا أن محاربة المؤمنين تتخذ أشكال المحاكمة الدينية، وتقمع الحركة الإسلامية بما هي تطرُّفٌ وانتهاكٌ للحُرُمات و«المقدسات». وتعني كلمة المقدسات في قاموس الاضطهاد الأوضاعَ القائمة وأشخاصَ الحكام. من السهل أن يلفق الحكام الجبارون ما يشاؤون من تُهَمٍ ضد الدعاة ليدخل نشاطهم «المخرِّب» تحت طائلة القانون، ثم تضع الملفات الملفقة صياغةً تُقدم المتهمين على أنهم أعداء للشريعة الإسلامية. وباسم الشريعة يُنصب بساط التعذيب، وترفع أعواد المشانق. كان هذا حتى فيما مضى والشريعةُ الإسلامية هي السيد اسميا، ولا يزال الإيمانُ الآمرُ بالمعروف الناهي عن المنكر يُحَارَبُ باسم الحفاظ على الشريعة. وما عذب جَبل السنة الإمام أحمد رضي الله عنه إلا بتهمة مخالفة رأي العلماء الصامتين.

إن سلطان الدولة القرآنية أداة إلزام بالشرع الذي تقتنع به الأمة الحُرة في اختيار حكامها. وفي هذه الحالة لا تناقُضَ بين الإيمان والشرع. بل يكون الشرع والإلزام به إطاراً يصون الإيمان ويعضده. أما إن كان الحكام لا يؤمنون بما تؤمن به الأمة، أو كانت عبادةُ أنفسهم ومصالِحِهم تُغطي على ما عندهم من إسلام موروث، فإن الشريعة تكون في أيديهم وسيلة لغير ما وُضِعَتْ له. يحافظون على شكلها وصورتها بما يُظهِر أعمالَهم حقا، وفي الباطن يخونون الشريعة ويُسخرونها لباطلهم.

معنى هذا أن دولة القرآن لا تأتي بإضافة أجزاءٍ للبناء السلطاني المؤسس على الوراثة الملكية أو التسلط الجبري العسكري، ولا بإحلال الأحكام الشرعية في القضاء والاقتصاد والأخلاق محل القانون الوضعي، ولا بأي تغيير شكلي يحدث في نظام الحكم وهياكله ما دام

الحكام لا يحملون بين جوانحهم قلوبا مليئة بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر. وبالتالي فلا طمع في أن تقوم دولة القرآن على يد من لا يؤمن بالقرآن، ولا ينضبط بالقرآن في سره وإعلانه.

دولة ورسالة

وقع الطلاقُ بين الدعوة والدولة في عهد مبكر من تاريخنا. وكانت أولى عرى الإسلام التي نُقضت عروةَ الحكم. ثم انفصمت سائرُ العُرَى حتى بلَغْنا هذا العهد الذي انزوى فيه القرآن بمعزِلٍ عن حياة الناس العامة انزواء كليا. فبناؤنا، بل بناؤهم، مهدومٌ، أنقاضٌ. الدين في جانب، والسياسة في جانب. وما هي إلا علمانية، محافظةٌ أو ثورية، وأحيانا ترتدي رداءً دعائيا فتتسمى اشتراكية إسلامية. والشعوبُ المسلمة في سوادها الأعظم تغُطُّ في نوم إسلامِ الخمول، بينما تقاتل طلائعُ الإسلام لكي تكون اليقظة العامة يقظةً إلى فجر الحق الصادق. صحوةٌ بدأت وتنتشر باركها الله. دعوة وليدة تقاتلها دويلات التجزئة، ويقاتلها الاستكبار العالمي. ومن أشد القتال تصوير الدين على أنه زَهادةٌ فردية، أو حكم شرعي جزئي يُعْطَى للطالبين بعد مساومة في برلمانات الفتنة. رُبَما يتحمل أعداء الإسلام صحوة المسلمين إن ازدهرت في بناء مساجد تملأها جماهير الشباب، يَشْتَغلونَ فيها بخلافاتهم. بل هم يجتهدون لتكون الصحوةُ دائرةً في أجواء الخلافات، والمؤتمرات، وطوفان المجلات، والكتب الإسلامية اسما ورسما. لكن الذي لا يتحملونه هو أن تنعقد الصحوة حركة سياسية ثورية تهدف قلب الأنظمة الفاسدة. ومعذرةً عن الألفاظ التي ينوب بعضها عن بعض في انتظار استقرار على المفاهيم الإسلامية بعد أن ترسَخَ. فإننا نجد كلمة «قومة» لَمَّا تألفها الأنظار والأسماع، فيسبق

القلم إلى «ثورة». وقد حددنا مفهوم الكلمتين، فلا مُشَاحَّةَ. ونحرص على تميزنا في الاصطلاحات.

يقول الإمام البنا رحمه الله: «فمن ظن أن الدين -أو بعبارة أدق الإسلام- لا يعرض للسياسة أو أن السياسة ليست من مَباحِثه فقد ظلم نفسه، وظلم عِلْمَه بهذا الإسلام. ولا أقول ظَلَم الإسلام فإن الإسلام شريعة الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وجميلٌ قول الإمام الغزاليِّ رضي الله عنه: «اعلم أن الشريعةَ أصلٌ وا لـمُلكُ حارس. وما لا أصلَ له فمهدُومٌ، وما لا حارسَ له فضائع». فلا تقوم «الدولة» الإسلامية إلا على أساس «الدعوة» حتى تكون «دولة رسالة» لا تشكيل إدارة، ولا حكومةً مادّةً جامدة صماء لا روح فيها. كما لا تقوم «الدعوة» إلا في حماية تحفظها وتنشرها وتبلغها وتقويها»[1].

رحم الله الإمام الغزالي، عاش تحت «الخلافة» العباسية ودافع عن المستظهر العباسي، وكان المستظهر رجلا فاضلا. رضيَ الغزاليُّ بأن يكون الـمُلْكُ حارسا للشريعة، لم يضَعْ مَبْدأ الملك ونظامه موضعَ مراجعة. ورحم الله الإمام البنا، عاش تحت حكم ضيع الدعوة وتنكر لها فلا يُنتَظَرُ منه حتى الحد الأدنى من مجاملة الدين والدعاة التي وفَّرَتْها «الخلافة» من قبل. فقام رحمه الله يُعيدُ بناء الدعوة ليضع أُسّاً جديدا. لم يرض بتلك الحكومات الجامدة الصماء التي لا روح فيها حاميا ولا ظهيرا، بل اعتمد على إيمان الأمة لحفظ الدعوة ونَشرها وتبليغها وتقويتها. وبفضل أمثاله وصلت الدعوة إلى ما هي عليه اليوم من قابلية لإعادة الصرح الأول على قواعده. رحم الله من سبقنا بإيمان وأجزل لهم المثوبة ورفعهم في مقعد الصدق.

(1) مشكلاتنا في ضوء النظام الإسلامي.

الفصل الثاني

ولاَية الله ورسوله والمؤمنين

- الدولة القومية
- القومية مرض غربي
- ولاية الله عز وجل
- الحب في الله والبغض فيه
- إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض
- الهجرة والنصرة
- هل انقطعت الهجرة ؟
- أولُو الأرحام

الدولة القومية

بعد أن رسخ عندنا أن الكيان المعنويَّ للدولة هو بمثابة الروح من الجسد، والمعنى من الحرف، ننظر إن شاء الله إلى الركيزة الأساسية في بناء دولة القرآن. ألا وهي العنصر البشري وروابطه.

بعث الله رسوله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم للبشرية جمعاء برسالة الإخاء والوحدة. جاء بشرع يأمر بنبذ العصبيات المفرقة والأنانيات الفردية والجماعية المستكبرة. فتح للإنسانية عهدا نيرا، وآفاقا واسعة، يمكن أن تجد فيهما ما تصبو إليه من التحرر من العبودية لغير الله، ومن العدوان والظلم. ويَسيرُ شرعُ الله عز وجل وسنةُ رسوله صلى الله عليه وسلم في اتجاه محو الفوارق الجنسية، والقبلية، واللغوية، واللونية، لتسود معاني الفطرة، ووحدة المخلوقين أمام الخالق. هذه هي الشريعةُ وأوامرُها، والسنةُ وهديُها. أما القدَر الإلهي فقضى أن يكون في البشر نزعاتٌ قبلية، وأنانيات واستكبار، واستعلاء باللون والجنس، وتفاخر بالأموال والأولاد والعَدَدِ. وضْعٌ قَدَرِيٌّ يسمح لحماة الشريعة والمجاهدين من أجلها أن يجاهدوا في حلبة المدافعة.

وأكثرُ ما تكون الأنانية والاستكبار والاستعلاء وضِيقُ الأُفُقِ عن الإخاء الإنساني في «الدولة القومية» وهي صيغة الدولة العصرية. ففي هذه الصيغة الغربية الجاهلية تلخصت كل الآفات التي جاء الإسلام ليشفيها. واجتمعت الـمُرْدِيَاتُ التي أطاحَتْ بعزة المسلمين: العصبيةُ للجنس، واللغة، والتاريخ، والتكتل القوميِّ الحزبي. في غرب الجاهلية كان كل هذا هو القاعدةَ منذ نشوء الدول القومية على أنقاض

المماليك والإمبراطوريات في القرن الماضي. وفي الاتحاد السوفياتي بعد ثورة أكتوبر التي زعمت أنها تهدف توحيد العمال وطبقتهم في العالم، رجعت عجلةُ التاريخ بالثورة الجاهلية إلى أصولها الجاهلية، وهي هيمنة العنصر الروسي، والقومية الروسية، واللغة الروسية، والثقافة الروسية.

في كل رقعة من دار الإسلام خلَّف الاستعمار بعد انسحابه الشكلي أداةَ هيمنته، ومهْبِطَ إيحاءاته، ومأوى أوليائه ووكلائه. خلَّف الدولة القومية القطرية. فلا تذهب بعيدا في البحث عن مصدر آلامنا، ولا نُبَدِّدْ جهودنا في محاربة ظواهر المرض عِوضَ الصمودِ إلى أصل الداء لحسمه واقتلاع جذوره.

القومية مرض غربي

قبل طرح البديل الإسلامي للقومية ودولتها على ضوء الكتاب والسنة، نحب أن نطل على الموضوع مع أحد رجال السياسة والفلسفة الغربيين، من عقلائهم كان، وهو اليوم ينتسب لهذه الأمة. إنه رجا جارودي الذي اتخذناه دليلا في التعبير عن الجاهلية ومعاناة الإنسان منها، نظرا لأنه أمضى أكثر من أربعين عاما في النضال الاشتراكي، والتفكير في مخرج من طوق الرأسمالية، فلم يجد إلا الإسلامَ بعد أن توسَّعَ فهمُه فأنكر في معتَقَدِهِ الشيوعي نفسَ الجاهلية التي كرس حياته لمحاربتها. لا نستفتيه عن إسلامنا فالرجل حديث عهد غريبُ فكر. يقول بعد إطلالة نظرية على مقتضيات الشرع الإسلامي في ربط المجتمع: «إن المجتمع الإسلاميَّ ليس ثمرةً «لِعَقْدٍ اجتماعيٍّ». بل هو تعبير عن وحدة الإيمان، المبنيِّ على اليقين،

بأن هناك غايةً تتجاوز المصالح الفردية، وحتى المصالح الجماعية، مهما كانت واسعةً -القبيلة، المدينة، الطبقة، القومية، الكتلة الإديولوجية-. هذه الوحدة (وحدة الأمة) تمتد إلى الإنسانية في مجموع تاريخها، وفي مجموع نظرتها للمستقبل. إنّ الوحدة الإسلامية -«الأمة»- تحمل تلك العالمية لأن كل عضو من أعضائها مرتبط بكل عضو آخر -من وراء فروق الجنس والأرض والتاريخ- بروابط الإيمان الواحد بوجود الله. ومن وجهة النظر هذه الإسلامية الصرفة فإن «القومية» مرضٌ غربيٌّ وميراث مُخْزٍ للتجزئة التي فرضها الاستعمار على أرض المسلمين. وهذا هو الشأن أيضا فيما يخص «الديمقراطية». فإنها تقتضي مواجهة وصراعا بين الأفراد والجماعات، وقد أصبحوا جُزَيْئَاتٍ ذَرِّيَّةً، تحكمهم المنافسة، وتلُفُّهم في كتلٍ صَمّاءَ ألاعيبُ «الإعلام» المزعوم -ألاعيب الأجهزة السمعية البصرية، وألاعيب الدعاية التجارية، وألاعيب استطلاعات الرأي، وألاعيب ممثلي المصالح الخاصة لدى البرلمانات، وضغوط نظامَيْ الإنتاج والاستهلاك-. وكل هذا لا علاقة له بمبدإ «الشورى»، شورى رجال ليس تربطهم العلاقات الأفقية والمنافسة، بل تربطُهم علاقة كل منهم بالحق المطلق (يعني الله عز وجل). فالسلطانُ والمِلْكِيَّة مرصودان لخدمة غاية تتجاوزهما. وليس هناك تعليم أكثرُ جِدَّةً ومُلاءمة للعصر من هذا في هذا الوقت الذي تشعرنا تجارب القرن أن من المستحيل بناء اشتراكية داخل نموذج «تنميتنا» العمياء التي لا تعرف للإنسان غاية. وتُشعرنا تجارب القرن أنه لا يمكن بناء الاشتراكية ابتداء من «فرديتنا» الأنانية الغربية التي تمثل الرأسماليةُ أصلَها وفرعَها. وتُشْعِرُنا تجاربُ القرنِ أنه لا يمكن بناءَ الاشتراكية بدون إيمان بالله، أي بدون إمكان للانقطاع عن حتمياتنا ومَسْخِنَا (استعمل هنا كلمة «ألينة» فترجمناها بأبلغ منها). بما أن الإنسان الغربيّ فقد الحس بوجود الله والحاجة إليه، فإن

ما هو كائن أصبح لا يُحْتَمَلُ كما أصبحت الثورة مستحيلة. وكل ثورة ستخفق إن زعم الإنسانُ تغييرَ كل شيء ما عدا نَفْسَه»[1].

هذه الصفحة تُصَوِّرُ مواقعَ طموح الإنسان المعاصر، كما تُمَثِّل عُصارة تجربة الحضارة المادية التي فشلت وستفشل لابتعادها عن دين الله، وتعويضها علاقات الأخوة الإيمانية بعلائق الاستكبار، والمنافسة العدائية، واحتقار الضعيف، والعدوان على الشعوب. ومن حيث نظرتَ إلى «الدولة القومية» تجد عليها طابع الجاهلية. تقطَع ما أمر الله به أن يوصل، وتصل ما أمر به أن يقطع. تدبير الديمقراطية التعددية خارج نطاق الأخوة في الله قطع لوحدة المجتمع. توحيد الديمقراطية ذاتِ الحزب الواحد ربط للمجتمع برباط القهر. كل هذا لا قرارَ لَهُ. وتجدُ طابَع الجاهلية في اقتصاد الدولة القومية، في ماليتها، في وَلائها الخارجيِّ وعدائها، في إدارتها للحاضر، في تخطيطها للمستقبل واستنادها على الماضي. ومن خصائص هذا المرض الجاهليِّ المسمى «قومية» أن المصاب به يفقد كل مُمَيِّزات شخصيته، فيدخل في «عالمية» الحضارة الجاهلية المزيفة. وعندئذ يتراءى أمامه سرابُ «اشتراكيةٍ» يتعلل بها رجاء التخفيف مما به، وهي حُلْم لا يتحقق ولا يمكن تحقيقه كما قرأت من كتابة خبير في الأحلام الضائعة.

ماذا يطلب المتألمون من مرض الجاهلية الكلي حين يحلمون بالاشتراكية والثورة، إنهم يطلبُون العدل والإحسان. يطلبون رفع الظلم، وإنصاف المحرومين، والتآخيَ بين البشر. وهو مطلب شريف ننشده فيما ننشد، مثلما ينشدون. نحن وإياهم إخوةٌ في الآلام، وإن كانت الجاهليةُ في بلادنا مستوطنةً غازية فهي لا تزال بحمد الله دخيلةً مرفوضة إن خرجت عن دائرتها الحيوية ومعْقِلِها خلْفَ أسوار

(1) وعود الإسلام، ص 71-72.

الدولة القومية والذرية المغربة. بيد أن مطلبنا في العدل، وزحفَنا نحو القومة المغيِّرة، لن يعمد إلى علاقات الماضي والحاضر فيكْسرَها ليفرض الزَّمَالَةَ الطبقية أو الرُّفَقَةَ الحزبية. ما أمر الله به أن يوصَل وما أمر الله به أن يُقطع تخطيطٌ لحسم داء الجاهلية. ويبقى الجسم سليما بإذن الله الرحمن الرحيم بعد أن تعود إليه العافية.

هذا القطع والوصل ينبغي أن يتناولا كل صغير وكبير من حياتنا. إنه تغيير شامل لموقفنا من كل الخلق في الأرض والسماء، في الدنيا والآخرة، على ضوء موقفنا الإيماني من الخالق عز وجل، وموقفنا من رسله، وكتبه، وشرعه. تحول كلي فينا، في داخلنا، في أنفسنا وعقولنا. ثم يتلوه تحول في سلوكنا، وأساليب تفكيرنا، ومعاملاتنا فيما بيننا، وفيما يربطنا بالعالم. وتجيء دولة القرآن بعدئذ تاجا على مَفْرَقِ جماعة المسلمين، بعد أن يتم التئامها وتأليفها، فتسري منها الصحة في ذلك الجسم الغثائي المتألم.

ولايةُ الله عز وجل

إذا سألت القوميين عن تعريفٍ لشخصيتهم انتسبوا للدم، والعرق، واللغة، والأرض، والتاريخ، وما شئت من شيء من دون الله. ولئن سألتهم عن الحقوق الضائعة، والأرض المسلوبة، ومصير الأمة المهدَّد، أشاروا إلى العصبية القومية والتكتل القومي ليكون لنا من جمع تلك الحشود قوة بها نغالب العدوَّ. في مرآة وعيهم تنعكس تحركات التكتل الأوربي الذي يحاول تجاوز القومية الضيقة، فيستجيبون لتحديات غيرنا لنا بنفس التلمسات والتجارب التي تبادر إليها أوربا الأستاذة. كانت هذه الأستاذة علمتنا وزرعت فينا

الوَلاء للدولة القومية القطرية، فقدَّسْنا الوطنَ وساكنيه، ثم رُزِئَتْ في عُقْرِ دارها بحربين طامتين فضحتا وباء «الدولة القومية»، فرَدَّدنا على إيقاع الفكر الأوربي والسياسة الأوربية مزايا القومية الجامعة أو الجامعة القومية التي توحد الأقطار. دَاوِنِي بالتي كانت هي الداءُ !

كانت الأمةُ المسلمة في تُركيا تنتسب للإسلام، وتعبد الله، وتدين له بالشريعة الـمُنَزَّلَة على رسول الله. فلما احتل المارق أتاتورك كرسيَّ الحكم نفى الدين، وأغلق المساجد، وأمر بعبادة «الذئب الأبيض»، صنمٍ خرافيٍّ في تاريخ جاهلية تلك القبائل. وأمر بتمجيد جنكيز خان، والعرقِ الطُّورانيِّ. وفي مصر هَجمت عبادةُ الأوثانِ القومية الفرعونية، فرُسِمَتْ صورةُ أبي الهول على الوثائق الرسمية، وتغنى الشعراء بأمجاد رمسيس باني الأهرام. وفي سوريا والعراق والمغرب وسائر بلاد المسلمين انكبت البعثات الأثرية الاستعمارية على نبش القبور، وحفر الأطلال، لإبراز معالمِ الماضي القوميِّ الآشوري، والسومري، والروماني البربري، وما لست أدري. وهكذا ربطوا ثقافة الشعب الإسلامية ربطا عموديا بتاريخها الجاهلي، فقسموها تقسيما قاطَعَ التجزئة الجغرافية فضاعف من تشتيت الأمة.

ونشأت أجيال وجدت الحال على ما هو عليه. فنبغ منا، من بني جلدتنا، نابش الأطلال، وسادِن معابد الأوثان، ومديرُ الدعاية، وهو نفسه زعيم القومية والاشتراكية والثورية، أو وارثُ السلالة والعصبية، المحافظ على آثار الأجداد. وجدت الأجيال هذه الحالَ يُحيط بها التقديسُ والتهويلُ. في المدارس تُعَلَّمُ القوميةُ، في الثكنات العسكرية يقدَّسُ علم القومية، على أوراق النقد صور لرموز القومية وزعمائها. عبادةٌ منظمة، وشرك ظاهر خرج من خفائه. وَلاَءٌ للأرض، والماضي، والأبطال، ولكل شيء من دون الله. الفكرة الأولى والخاطرة

البديهية عند المتدينين بدين القومية هي أَنَنا قوم من القوم. لا انتماء لنا إلا لما بين أيْدِينا وما خلفنا من تاريخ. وشؤون السماء لا تعني الدينَ القوميَّ إلا من حيثُ كونُها عرقلةً للثورة، وتخلفاً فكريّاً يُبْطِئُ بساعة الحرية والاشتراكية.

إن المواجهة بين أولياء الله وحزبه، وبين أولياء الشيطان وحزبه، تقتضي تميزاً في الانتماء والشعور، يترتب عليه الإخلاص لمن نُواليه ونكونُ من حزبه، ويترتب على الإخلاص بذل أموالنا وأنفسنا في سبيل ما نؤمن به. وتتضمن كلمة «ولي» الواردة في القرآن بصيغ فعلية متعددة، وبصيغ مصدرية، وبصيغ اسم الفاعل واسم المفعول، معانيَ الانتساب، والقرب، والعقيدة، والنصرة.

ولترسيخ هذه المعاني في الأذهان نورد ما كتبه الراغب الإصفهاني في مادة ولي، قال رحمه الله: «الوَلاء والتوالي أن يحصل شيئان فصاعدا حصولاً ليس بينهما ما ليس منهما. ويُستعار ذلك للقرب من حيث المكانُ، ومن حيث النسبة، ومن حيث الدينُ، ومن حيث الصداقةُ، والنصرةُ، والاعتقادُ. والوِلاية (بكسر الواو) النُّصرة. والوَلاية (بفتحها) تَولِّي الأمر. وقيل الوِلاية (بكسر الواو وفتحها) نحو الدِّلالة والدَّلاَلة (بكسر الدال وفتحها). وحقيقته تولي الأمر. والولي والمولَى يستعملان في ذلك كل واحد منهما. يقال في معنى الفاعل، أي الـمُوالي، وفي معنى المفعول أي الـمُوالَى. يقال للمؤمن: هو وليُّ الله عز وجل، ولم يَرِدْ مَولاه. وقد يقال: الله تعالى وليُّ المؤمنين ومولاهم. فمن الأول قال الله تعالى:﴿ **اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾، ﴿ **إِنَّ وَلِيِّـيَ اللهُ** ﴾، ﴿ **وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾، ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾، ﴿ **نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ** ﴾، ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى** ﴾. قال عز وجل:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ﴾، ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلَاهُ ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾[1].

إن تدقيق المعاني وربطها بأصولها القرآنية يعطينا أدوات فكرية تساعد على فقه ديننا، والتميز عن التمريج الذي حدث في لغتنا العزيزة من جراء احتكاكها بلغات الجاهلية.

يجري على الألسنة والأقلام كلمةُ «الولاء»، و«إعطاء الولاء»، ولا يُتبَيَّنُ لها مدلول. وتستعمل في ميدان الدعوة للتعبير عن انضمام عضو إلى جماعة. وربما يختلط معنى الولاء في هذا الاستعمال مع معنى البَيْعَة. وربما يتحول هذا «الولاء» إلى تعصب لطائفة أو تنظيم يتجاوز حد التجند الملتزم إلى نبذ من سوى المنتسبين للتنظيم. أما وقد وضعنا كلمة ولي ومشتقاتها، ومنها «الوَلاء»، على أصولها اللغوية القرآنية فنرجو أن يتضح لنا أن الوَلاية والوَلاء والموالاة هي لله أولا وقبل كل شيء. ومعنى ذلك أن نحب في الله ونبغض فيه. أن نحب فيه سبحانه كل عبد، أو جماعة، تدين له بالإخلاص، أي بالوَلاية. وأن نبغض فيه كل عبد أو جماعة تنتسب إلى غير الله، وتعتز بغير الله، وتنصر غير الله، وتستنصر بغير الله، وتعتقد ألوهيةً غير ألوهيته سبحانه.

﴿وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة آل عمران،68). هذه وَلاية منه إلينا، نسبة الخالق للمخلوق، وقربه منه، ونصرته له إن آمن به وخضع لجلاله. ووَلايةٌ منا إليه أمرنا بها في القرآن، وجعلها موصولة لا تنفك بوَلاية رسوله صل الله عليه وسلم ووَلاية المؤمنين. قال عز من قائل: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

(1) معجم «مفردات ألفاظ القرآن»، مادة ولي.

وَهُمْ رَاكِعُونَ وَمَن يَتَوَلَّ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (سورة المائدة، 55-56).

هذه روابطُ موصولة بين كل عبدٍ عبدٍ وبين ربه، وبين جماعة المؤمنين وبين ربهم، وبينهم من فرد لفرد، ومن فرد لجماعة، وبينهم وبين رسولهم. ولكلِّ صلة من هذه الصلات ما يليق بها من مقتضيات العقيدة، والانتساب، والقُرْب، والنصرة، والصداقة، وتولي الأمر. أي أن هذه الروابطُ تستوعب وتُغَطِّي مجالاتِ العبادة، والتنظيم الاجتماعي، ونظام جماعة المسلمين وهم حزب الله، والاقتصاد، والتدبير العسكريِّ، والسياسة، والحكم، وسائر مناحي النشاط البشري. مجموعة من الصلات لا تكون وَثاقاً يَأْسِرُ الإنسانَ في شبكته، بل تكون جوا شعوريا، إيمانيا، قلبيا، حيويا، معاشيا، دنيويا، أخرويا، سياسيا، اجتماعيا، يفك عن العاني إصْرَه وأغلالَ عبوديته للبشر، ولهواه، ولشهواته، ولأفكاره الفلسفية الملحدة، ولأوهامه. كما تفك عنه، إن قطع ما أمر الله به أن يقطع ووصل ما أمر الله به أن يوصل، أغلال الظلم الطبقي، والاستغلال، والغربة في عالم العنف والتسيب الجاهليين.

الحب في الله والبغض فيه

روى الطبراني رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أوثقُ عُرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله عز وجل». والأحاديث الصحيحة في هذا المعنى كثيرة مشتقة من أمر الله تعالى لنا أن نتوالى فيما بيننا. ومن معاني «ولي» القرب المؤذن بالمحبة والصداقة. إذا كنتُ

أفِي بالوَلاية لله فإنني أحِبُّ ما يحبه الله، وأحب من يحبهم الله، وفي البغض كذلك. وقد ورد في القرآن الكريم أن الله يحب الأذلة على المؤمنين الأعزة على الكافرين المجاهدين في سبيل الله لا يخافون في الله لومة لائم. وورد أنه تعالى يُحب التوابين، والصابرين، والمتوكلين، والذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص. وورد أنه عز وجل لا يحب الكافرين، ولا الظالمين، ولا المفسدين، ولا المختالين المتكبرين الفخورين.

بهذه الأوامر والإشارات الإلهية يتحدد لنا المسار العاطفي، والمنهاج العملي، للتعامل مع أصناف البشر تعاملاً أساسُه وحدةُ العقيدة أو اختلافها، اتحادُ الوجهة والنسبة أو افتراقهما. لا يجوز لمؤمن وَفيٍّ لوَلائه لله عز وجل أن يترك الهوى، والاعتبارات النفسية والمصلحية، تُملي عليه سلوكا اجتماعيا، أو سياسيا، أو اقتصاديا، يتنافى مع حقوق الحب في الله والبغض فيه. ولا يجوز له أن يمنع ولا أن يعطي إلا بضابط الشرع. ولا يجوز له أن يحابيَ العشيرةَ والقَرابة والصداقة الشخصية إن تعارض شيء من ذلك مع الوَلاية لله ولرسوله وللمؤمنين. قال سبحانه: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (سورة المجادلة، 22).

هذه الآية الكريمة تبين أن الإيمان يكتبه الله في قلوب المؤمنين نتيجة لتواليهم فيه. توالٍ يغلِبُ كلَّ الميول النفسية، ويقهرها، ويطردها. فإذا كتب الله الإيمان في القلوب أجرى المؤمنين جرايَةَ التأييد برُوحٍ منه، وهو النُّصْرةُ التي يستحقها الوليُّ، وجراية الجنة في الآخرة تجري من

تحتها الأنهار خالدين فيها، وجرايةَ كونهِم من حزب الله المفلحين دنيا وأُخرى.

وقد ورد ذكر «حزب الله» هنا في سورة المجادلة وفي الآية من سورة المائدة. ووُصِفَ حزب الله بأنهم الغالبون المفلحون. وإنما يكون المؤمنون حزبَ الله بهذه الموالاة القريبة الوثيقة لله ولرسوله وللمؤمنين. نحتَفِظ بهذا المعنى الأساسي لنرجع إليه في فصل مقبل نتحدث فيه إن شاء الله عن «جماعة المسلمين».

إن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض

صلاح الأرض بصلاح المستخلفين فيها وهم أمة الإسلام، وفساد الأرض وفتنتُها بالخلل الواقع فيهم. هذه الآيات الكريمة من آخر سورة الأنفال تضع أصبعنا على موطن الفساد، وهو انحلال الوَلاية في الله بيننا. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُولَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، 72-75).

هذه الآيات جامعةٌ لشروط الوَلاية بين المؤمنين المجاهدين. وَلاَيةٌ أخص وأوثق من مجرد الحب في الله بين كل مؤمن ومؤمن. أخص من

الوَلاية العامة التي في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾ (سورة التوبة،71).

1. الآيات تذكر أصناف المؤمنين من مهاجرين وأنصار مجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم. ثم أصناف المسلمين ممن آمن ولم يهاجر ولم يجاهد، وهؤلاء هم الأعراب في مصطلح القرآن.

2. تذكر أنَّ الوَلاية الجهادية التي توجِب التناصر بالأموال والأنفس، وتخصص من بين المجتمع الإسلامي العامِّ فئة المهاجرين والأنصار، وتجعلهم نواة المجتمع الإسلامي ومركزَهُ. بصلاح الوَلاية فيما بينهم تصلحُ الأرض وبفسادها تفسد.

3. تذكر أنَّ الوَلاية الجهادية بين المؤمنين تقابل وتواجه وتقاتل الوَلاية بين الكفار. فإذا تعطلت هذه الوَلاية تعطل الجهاد لغياب أسبابه، فوقع الفسادُ في الأرض بتناصر الكفار على وَلايتهم.

4. تذكرُ أن صلاح «جماعة المسلمين» وهم المجاهدون من المهاجرين والأنصار يُقَدَّمُ على مصلحة الأطراف من المجتمع الإسلامي. قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿**وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ**﴾ الآية... يقول تعالى: وإن استنصروكم هؤلاء الأعراب الذين لم يهاجروا في قتال دينيٍّ على عدو لهم فانصروهم. فإنه واجب عليكم نصرهم، لأنهم إخوانكم في الدين. إلا إن يستنصروكم على قوم من الكفار بينكم وبينهم ميثاق، أي مهادنة إلى مدة، فلا تخفِرُوا ذمَّتكم، ولا تنقُضوا أيْمانكم مع الذين عاهدتم. وهذا مرويٌّ عن ابن عباس رضي الله عنهما».

5. تذكر أن ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَـئِكَ مِنكُمْ**﴾. والبعدية هنا لا تُحَدُّ بزمان إلا عند من يعتبر القرآن

تاريخا مضى وانقضى. فإن كانت الآيات هنا نزلت على مؤمنين مجاهدين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حي بجسده، فتنزلها بمعانيها يتجدد على أمته كلما نهض فيها جماعة هاجروا إلى الله ورسوله، وناصروا الله ورسوله، وجاهدوا في سبيل الله ورسوله والمستضعفين في الأرض. وسنرجع بعد قليل إن شاء الله لمعاني الهجرة والنصرة.

6. تذكر أن ذوي الأرحام بعضُهم أولى ببعض. وقد جاء عند البخاري رحمه الله أن المهاجرين والأنصار كانوا يتوارثون قبل نزول آيات الفرائض. فكانت القرابةُ الإيمانية مناطَ الاستحقاق. ثم نُسِخَ ذلك الحكم ورُدَّتْ الوراثةُ إلى ذوي الأرحام. وفي الآية أن ذوي الأرحام بعضُهم «أولى» ببعض. هذه الأولوية لا تتنافى مع وَلاية الإيمان ولا تعوضها، بل تؤيدها كما سنرجع إلى ذلك إن شاء الله في بقية هذا الفصل.

الهجرة والنصرة

كانت الهجرة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم نُقلَةً من مكة أو من منزل القبيلة إلى دار الهجرة. نُقْلَةٌ من مكان لمكان تترجم عمليا تحول الوَلاَية من العشيرة والقبيلة والأرض والمألوف إلى الله ورسوله والمؤمنين والمستضعفين، وهم المستضعفون على الدين المظلومون. كانت المدينة مجْمَعَ حِزْبِ الله، فكل من هاجر وسكن المدينة فإنما هو مؤمن جاء إلى رباط جند الله، وتجند، ورابط، وجعل نفسه رهن إشارة الله ورسوله والمؤمنين في كل لحظة. رباط مستمر، وجهاد متواصل. وقد قاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه بضعا وعشرين غزوة، وبلغ مجموع غزوات المسلمين وسراياهم على عهده المبارك ما بين خمسين أو ستين

حسب الروايات. وبلغ بعض أصحاب السير بها المائة. نعلم كيف كان التآخي بين المهاجرين والأنصار، اثنين اثنين، وجماعة مع جماعة، تآسيا بالمال والنفس. وتآسيا كليا بين أفراد أمة مقاتلة مُعَرَّضة للعدوان في كل لحظة، متيقظة، مستعدة، متحركة، طيلة العشر سنوات من حياة النبي صلى الله عليه وسلم. وَلايةُ الانتساب، والصداقة، ووحدة العقيدة، والنُّصرة، تحققت جهادا فاعلا مؤثرا في حياة كل مؤمن تجند بالهجرة أو النصرة، وفي حياة الأمة ومصيرها.

كان التشديد في أمر المسلمين بالهجرة وتحبيبها إليهم كلمةَ الجهاد تقال وصية نبويَّةً، وتتلى قرآنا مُنـزلا. قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالْوَاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا** ﴾ (سورة النساء،97). قال القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: «فإنَّ من كان مقيما بمكة على إيمانه لم يكن ذلك معتدا له به ولا مُثاباً عليه حتَّى يُهَاجِرَ». وقال في وجوب نصرة المستضعفين على من هاجر ونصر استثناء من قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ** ﴾، قال مستثنيا: «إلا أن يكونوا أُسَراءَ مستضعفين فإن الوَلاية معهم قائمة، والنُّصرةَ لهم واجبةٌ بالبدن، بألاّ يبقى مِنّا عَيْنٌ تَطرِفُ حتى نَخْرُجَ إلى استنقاذهم إن كان عددُنا يحتمل ذلك، أو نبذلَ جميع أموالنا في استخراجهم، حتى لا يبقى لأحدٍ درهمٌ كذلك. قاله مالك وجميع العلماء. فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق في تركهم إخوانَهم في أسر العدوِّ، وبأيديهم خزائن الأموال، وفضول الأحوال، والعُدَّة والعَدَد، والقوة والجَلَد !»[1].

(1) أحكام القرآن، ج2، ص 876.

إذن فللهجرة والنُّصرة معنى جهادي، إذ بهما تتجسد الوَلاية في الله جُنداً مُرابطا سريعا إلى نصرة الله والمستضعفين.

هل انقطعت الهجرة ؟

سؤال وضعه علماء الأمة بعد العهد النبوي. قال أبو داود رحمه الله: «باب في الهجرة هل انقطعت ؟». وروي عن معاوية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة. ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمسُ من مغربها**». والحديث عند الدارمي رحمه الله أيضا في «باب الهجرة لا تنقطع». وأخرج الشيخان وأصحاب السنن رحمهم الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّة، وإذا استُنْفِرْتُم فانفروا**». وأخرج الشيخان وأبو داود رحمهم الله عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**المسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده. والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**».

من كل هذه الأحاديث يتلَخَّص أن:

1. الهجرة كانت تعبئة لجند الله ضرورية في معقلٍ حصين، منه انطلقوا لدفع العدوان، ونشر رسالة الإسلام.

2. الهجرة بالانتقال من مكان إلى دار الهجرة انقطعت بفتح مكة، لأن مصدر العدوان الجاهلي يومئذ كان مكة.

3. الهجرة باعتبارها انحيازاً إلى الله ورسوله، وباعتبارها وَلاية للمسلمين وكَفّاً عما نهى الله عنه ماضية كالتوبة لا تنقطع إلى يوم القيامة.

4. وكذلك النُّصرة باعتبارها أداءً لما تفرضه الوَلاية الجهادية لا تنقطع إلى يوم القيامة.

فإذا حوَّلْنا نظرنا من ذلك العهد إلى هذا الزمان رجعنا بفائدةِ أنَّ الهجرة والنصرة انتقال المسلم الخامل من أعرابيته إلى الاهتمامِ بمصير الأمة، وحمل همها، والانضمام إلى جند الله بعد قطع حبالَ الجاهلية، وعصبياتها، ووَلاءاتها.

ونقول كلمة عن الأعراب والأعرابية فإن هذا المفهوم القرآنيَّ مفتاح لفهم التركيبة الإسلامية للمجتمع. في وسط المجتمع حزب الله، جنده المقاتلون المعبأون أموالا وأنفسا، وأوقاتا وجهودا. وفي أطراف المجتمع المسلم مسلمون لَمَّا يدخل الإيمان في قلوبهم، أعرابٌ بالمصطلح القرآني تُفَصِّل سورة التوبة أصنافهم، ودرجاتِ إسلامهم. ولئن كانت الأعرابية في ذلك العهد تطابق وجود عرب يسكنون البادية، فالمعنى الذي جسدوه، والفئة الاجتماعية التي انتموا إليها، لا يزالان صالحين لتصنيف فئات مجتمعنا تحت دولة القرآن.

ويمكن اعتبار كل مسلم ليس له نصيب من معاني الهجرة والنصرة أعرابيا بالمعنى القرآني. قال القاضي ابن العربي رحمه الله: «فمن دخل في الهجرة أو ترسَّم بالنصرة فقد كمُل له شرف الصحبة. ومن بقي على رسمه الأول بقيَ عليه اسمه الأول، وهم الأعراب. (...) إن كل مسلم كان عليه فرضا أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكونَ معه حتى تتضاعف النُّصرة، وتنفسح الدَّوْحَة، وتحتمي البيْضة. (...) وكان من سار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صار مؤَهَّلاً لحمل الشريعة وتبليغها، متشرفا بما تقلد من عُهْدَتها. وكان من بقي في موضعه خائبا من هذا الحظ، منحطا عن هذه المرتبة»[1].

(1) أحكام القرآن، ج2، ص 989.

المهاجر إذن والأنصاري هو من جاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم في حياته، أو جاء لجماعة المسلمين المجاهدة، فتعلَّم دينه، وتجند حتى أصبح مؤَهَّلا لحمل الرسالة وتبليغها، وتقلَّدَ عُهْدتها. ومن تخلف عن الجهاد فهو من أطراف المسلمين، محمولٌ، قاعدٌ، عالَةٌ. ولِمَنْ بقي على أعرابيته أحكامٌ تناسب مرتبته، ذكر منها ابن العربي عدم استحقاقه شيئا من الفيء، وعدم صحة إمامته بالحاضر، وإسقاط شهادته على الحاضر. وكأني بفقهائنا إذ ينسُبُون للحاضر على البادي مرتبة وشرفاً لمجرد سَكَنِ هذا في البادية وذاك في المدينة أُنْسُوا أن حاضرة الهجرة لم تكن فقط حاضرة علم كما هو شأن الحواضر في تاريخنا، بل كانت دار جهاد فوق كل شيء.

أولُو الأرحام

قرأنا في سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿**وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ**﴾. جاء هذا الحكم بعد تفصيل الوَلاية الجهاديةِ الواصلةِ بين المهاجرين والأنصار. وجاءت بصيغة التفضيل. ونقلنا عن البخاري رحمه الله أن في هذه الآية نَسْخاً للتَّوارُثِ الأول خارج روابط النسب الحِسي. فالأولوية هنا في هذا الباب وحدَه. ويُطْرَحُ لنا هنا سؤال عما يفعله الإسلام بسائر الروابط الاجتماعية من روابط النسب، وقربة الصداقة، وجوار السَّكن، واتفاق اللغة، والانتماء للقطر والجهة. إلى آخر ما هنالك من تعلق الناس بعضهم ببعض تعلقا فطريا، أو إلْفاً اجتماعيا، أو ميلا مزاجيا، أو تناسبا فكريا، أو انسجاماً طَبْعيا. روابطُ الأفراد والجماعات ما دون الوَلاَيَة الجهادية بين المؤمنين المجندين، ما دون وَلاَيَةِ النُّصرة بين كل المسلمين، وما دون واجب الخروج لحماية المستضعفين ماذا يفعل بها الإسلام؟ هل يُحاربها ويقطعها؟ هل يُهْمِلُهَا ويستغني عنها؟

كلا ! فالرحمة وهي سمة المؤمنين فيما بينهم ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ تمتد امتدادا من الأقرب فالأقرب، حتى تُغَطِّيَ كل الروابط البشرية، وتمتَصَّهَا إليها، وتستصلحها، لتنقذها من العصبيات الجماعية والأنانية الفردية، وتدخلها في دائرة الأخوة الإسلامية. ثم تمتد من خلف وجه الشدة العابس على الكفار لِيَلْمَحَ فيها كلُّ مستضعَف في الأرض، وكل تائق للرحمة، وكل متأفِّف متألم من جهامة الجاهلية وعنفها وقحطها العاطفيِّ، ملامحَ الإنسانية الرحيمة بالخلق.

نقرأ في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الحث الأكيد والوعيد الشديد في شؤون برِ الوالدين. ونقرأ واجب إيتاء ذوي القربى واليتامى والمساكين. ونقرأ واجب الوفاء لحق الجار والصديق. كل ذلك يسعى الإسلام ليستخدمه في إطار الوَلاية لله ولرسوله وللمؤمنين. فإذا تعارض الوَلاءُ لله ورسوله والمؤمنين مع الوَلاءات القبلية، والأنانية، والقطرية، والوطنية، وما هنالك، فيُطْرَحُ كل ذلك ويقاتَل ويُستأصَل.

في السيرة النبوية أمثلة ناصعة للعلاج النبوي في استصلاح وشائج القرابة والنسب والقبيلة. بل ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم أعراب الأمة يتجندون للإسلام مع المحافظة على وحدتهم القبلية كما هو معلوم في استعراض الجيش أمام أبي سفيان غداة فتح مكة. وفي حياة الصحابة أمثلة لقتال المؤمنِ أهْلَهُ وعشيرتَه وأقْرَبَ الناس إليه إذا تعارض الولاءان. كما فيها أمثلة هي القاعدة للحفاظ على صداقات الجاهلية، ونسَبِ الدم، وعهْدِ المودة السابِق. وهذا كثير جدا. وخُلاصة القول إنَّ حدود الولاء لا تمر كالصارم البتار تقطع الصلاتِ البشرية كما يقطعها الانتماء الثوريُّ للطبقة. بل ينفتح الإسلام رحمة واعدةً بمستقبل الأخوة.

الفصل الثالث

جماعة المسلمين



- من فارق الجماعةَ
- العالمية والقطرية
- من هم «جماعة المسلمين» ؟
- فقه المسألة
- النواظم الثلاث للجماعة
- الجماعة القطرية
- الجماعة الواحدة والتعدد
- المعارضة المخربة
- الإسلام دين جماعة

من فارق الجماعةَ

رَوَى الأئمة أحمدُ ومُسلم والنسائي رحمهم الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة فمات، مات مِيتَةً جاهليَّة. ومن قاتل تَحت راية عُمِّيَّةٍ، يغضَبُ لعَصَبَةٍ، أو يدعو إلى عَصَبة، أو ينصُر عصبة فقُتِل، فقِتْلَةٌ جاهليَّة. ومن خرج على أمتي يضرب بَرَّها وفاجِرَها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لِذِي عهد عهده، فليس مني ولستُ منه**». وأخرج الحاكم رحمه الله، وقال: صحيح على شرط الشيخين، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من خرج من الجماعة قَيْدَ شِبْرٍ فقد خلع رِبْقَةَ الإسلام من عُنقه حتى يُراجِعَه. ومن مات وليس عليه إمَامَةٌ وجماعة، فإن مَوْتته مَوتة جاهلية**». ونَذْكر حديث حذيفة رضي الله عنه الذي حذَّر فيه الحبيب صلى الله عليه وسلم من الدُّعاة على أبواب جهنم، سأل فيه حذيفة عن العمل إذا لم تكن هناك جماعة ولا إمام يلزمهما المؤمن، فكان الجواب: «**فاعتزل تلك الفِرَقَ كلَّها ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**».

تتكامل هذه الأحاديث فتعطينا عن الجماعة ولزومها، وحضورها وغيابها، وتناقضها مع العصبية، الصور التالية:

1. لزوم الجماعة والوفاءُ بِبَيْعة إمامِها واجب، يُخْرج الإخلالُ به عن دائرة الإسلام.

2. كل راية تخفُق على رأس عَصَبية، وكل مُناصرة ووَلاء للعصبية، تناقض الوَلاَيَةَ الإسلامية، فهي جاهلية.

3. الخروج عن الجماعة لا يبرره وجود الفُجور والفجار.

4. إذا لم يكن للمسلمين جماعة ولا إمام فالفِرق الضالَّةُ والفِرَقُ القاعدةُ وفئاتُ الأعراب لا تعوِّضُ جماعة المسلمين. بل يجب الاعتزال عنها جميعا.

5. تكمل الصورة بواجب ضِمْنِيٍّ أجمع الفقهاءُ عليه، وهو واجب إقامة إمام للمسلمين. ومن ثَمَّ وُجوبُ بناء جماعةٍ للمسلمين إن تفرق شمل الأمة وتوزعتها العصبيات والقوميات وزجت بها تحت الرايات العُمِّيَّات.

قال الحافظ ابن الأثير الجزَري رحمه الله: «العُمِّيَّةُ الجهالة والضلالة. وهي فعيلة (بضم الفاء وتشديد العين المكسورة) من العَمَى».

يستعمل بعض شباب الدعوة هذه الأحاديث وأمثالها يُسْنِدون بها زعمهم أن تنظيمهم هو «جماعة المسلمين». وكل من خرج عنهم هالك. صبيانية ما تستحق أن نشير إليها عابرين لو لم تترتب عليها بلبلة كبيرة. إن ميراث النبوة وميراث الهجرة والنصرة ضاع من حيث الوجودُ الفعليُّ لجماعة المسلمين، ولم يبق منه إلا الهدايةُ جسما اجتماعيا، ولكي يخرج الجهاد من حيِّزِ القابليات إلى حيز الفعل، لا يكفي تجميعُ أشتات من أطراف الأمة، وإطلاقُ اسم «جماعة المسلمين» على من لم توَكِّلْهم الأمة، ولا ورثوا نصيبا من الربانية.

العالمية والقطرية

من السذاجة الظنُّ بأن جمْعَ المسلمين على كلمة واحدة يمكن ابتداء من هذه الحركات العفوية القاصرة فكرا، الناقصة تربية، العديمة تجربة. وقد زارني شاب كما فتح عينيه على الإسلام ذكر لي أن معه

ثلاثين شابا مثلَه، تذاكروا على أن يُنَظِّمُوا مؤتمرا يدعون إليه أقطاب الدعوة الإسلامية في العالم محاولةً منهم أن يجمعوا كلمة المسلمين. سذاجةٌ معها طيبوبة. ونفضل مثل هذه البساطة على تعقيد وانغلاق جماعات الشباب الذين أسيءَ توجيهُهم، أو سَقَطُوا في يد بعض المتفقهة من طُلاّب الرئاسة، فزعموا أن الحقَّ معهم وحدَهم، وأن لا خلاص خارج سياجهم. وسواء السُذَّجُ البسطاء والمعقدون في كونهم تجمعات محلية قاصرة، قد يُحدِثون تعبا للدعوة لا سيما إن تكاثرت طوائفُهم، وتلاحَّتْ، وتسابقت، وتزايدت في الحركية وادعاء الهداية من دون الناس. لكنهم إن وُضِعُوا في أُفُق الأمة الواسعة، وقِيسُوا بعُمق تاريخنا الماضي، وضخامة مشاكلنا الحاضرة، وسَعَةِ مستقبل الإسلام، لا يعدون أن يكونوا هَباء مر في الهواء، أو نَوْبَةً مما يصيب الأطفال من أمراض الطفولة.

فإذا ارتفعنا إلى جِدِّ المسألة وجَدْنَا أن علماء المسلمين ومربيهم ومجاهديهم ينقسمون فريقين: فريق يريد البناء من فوق فيذكر بعالمية الدعوة، وعموم الرسالة، وفريق يطرح المصاعبَ العملية ويُشير ببدء البناء من تحتُ، من الركائز القطرية ليقامَ عليها بعدُ صرحُ الإسلام وقُبَّتُه.

لا بأس أن نتصور دعوةً عالمية موَحَّدَةً غلبت كل مصاعب الخلاف المذهبيِّ، والـمَشْرَبِ التربوي، والشكل التنظيمي، حتى تم اتفاق الدعاة على منهاج موحد في كل تلك الوجوه. فمِن أين تنطلق في جمع الشتات ؟ ومن أين يبدأ الزحف ؟ وكيف تتعامل مع دويلات الفتنة ؟

إن تعدد الجماعات المحلية والقطرية وتفرعها وتاريخ خلافها يضاعف مشاكل جمع الشتات. وإن افتقار الدعوة العالمية إلى مرتكز في أرض الواقع يحد من إمكانيات الزحف العالمي الموحد. وإن تعدد

دويلات الفتنة واختلافها في نوع مراقبة الدعوة واضطهادها، وتنوع فرص العمل من دويلة لدويلة، يفرض على الدعوة تعاملا متنوعا.

فرضنا وجودَ دعوة موحدة في التصور والمنهاج عالمية. وتصورنا بعض ما يعرقل سيرها إن حاولت أن تنتقل من مرحلة التصور والمنهاج إلى مرحلة السعي في الأرض والبناء. مجردُ فرض لنُبْرِزَ العقباتِ النفسيَّةَ السياسية العملية الحائلة دون عالمية التحرك. والواقع أن هناك دعوات تحملها حركات تهدف لفرض وِجْهَة نظرها وخُطَّةِ عملها في كل دار الإسلام. منها الأجدر والأقلُّ جدارةً، منها الأفْقه والأقلُّ فِقها، منها الربانيُّ والأقلُّ ربانية، منها الحركيُّ والأقلُّ حركية، منها من قطع أشواط الزحف وملك السلطان، ومنها من لا يزال في طي السرية والكتمان. ومجرد وجود حركات حية منبثة في الأقطار الإسلامية لها ماض، ومعها منهاج يدافع عنه رجال، ويتعصبون له، يحكم على من انضم إلى حركة عالمية دون الأخرى أن يحمل عبء تلك الخلافات، وعبء ذلك الماضي، وعبء مضاعفات العقبات الحاصلة من ضرب عدد الأقطار في عدد الحركات العالمية.

نعم، الكفرُ ملةٌ واحدة، ويجب أن تكون أمة الجهاد حركةً واحدة. نعم، المكر السيِّئ المبيت ضدنا لا يميز بين مدرسة إسلامية فكرية وأخرى، ولا بين أسلوب تربية وآخر، ولا بين تنظيم وآخر، فيجب أن نتوحد لنكون في مستوى مهمات المواجهة. نعم لكل الحيثيات التي تلزمنا شرعا وحكمة سياسية مستقبلية أن نسعى لنتوحد. لكن ما هي أقرب الطرق إلى التوحيد ؟

في إيران يقول الشيعة إن وِلاية الفقيه مُلزمة للأمة كلها. ويقولون إن الفقيه صاحب الوِلاية هو «أسبقُهم للتصدي» أيْ الذي سبق فبرز في الأمة قائدا وانتصر.

وفي غير إيران دعوات عريقةٌ تربيةً وجهادا وسَعَةَ أُفُقٍ، لكنها عانت وتعاني من قمع الأعداء ومناصَبَةِ الخصوم. ووسائلُها محدودة.

للدولة الإيرانية الإسلامية أخطاء في حجم عظمةِ انتفاضة الثورة، وفداحةِ تألُّب الجاهلية عليها. وخلفَ الأمة الحروب والفتن المذهبية لا تزال تتجدد على نطاق ما داخل إيران الإسلام. في أحشاء الثورة الإيرانية جنين نرجو له التغلب على آلام الوضع. لكنَّ تَبَنِّي هذا الجنين قبل أن يتم تخلُّقُه، وفرضُه على الأمة بحجة أسبقية التصدي، واعتبارُه النموذجَ الأوحَد، مما يتنافى مع الشورى والإجماع. خاصة وللمذهب الشيعي وعقيدته وعاداته من الخصوصيات ما لا نقبله بوجه نحن أهلَ السنة والجماعة سوادَ الأمة.

أما الحركات العالمية الأخرى، مع فضلها وسابقتها التي لا تنكر، فمتى حصلت على إجماع الأمة كان منهاجُها هو المنهاجَ، وأمرُها هو الأمْر، بعد أن تنضم إليها قوى الأمة الحية وتنضم هي إليها.

ذاك هدفٌ ينبغي أن نهدِف إليه، ونقطعَ إليه المراحلَ، ونصبِر على طول المسافات دونه. أما إلغاء كل مخالِف، ومحاولةُ الاعتماد على مجد السابقة وانتصار الحاضر لفرض الرأي الاجتهادي، والمنهاجِ الحركي السياسِي التربوي التنظيمي، فتعسف ووضع للنتائج بين يدي المقدمات.

عالمية واحدةٌ ممكنة وواجبةٌ في انتظار الإجماع المرتقب نضجُه إن شاء الله، وهي عالمية التنسيق والتآزر والدعم وتبادل المعلومات والرأي وتوحيد الأهداف الجزئية وتقريب الشُّقة. وواجب كل قطر سبق للتحرر أن يخصص كل فضول ماله وقوته وحيلته لنُصرة المسلمين المجاهدين.

من هم «جماعة المسلمين» ؟

إننا نخادع أنفسنا ونتعرض لسلسلة لا تنتهي من خَيْبات الأمل إن نحن حسبنا أملنا في الوحدة واقعاً حاصلا الآن، أو هدفا سهل التحصيل. يؤلمنا أشدَّ الألم ما هي فيه الأمة من تجزئة وتشتت، لكن العواطفَ المتأسفةَ لا تفيدُ، ولا يفيد أن نندفع بوخز الضمير، وداعي الواجب الشرعي في الوحدة، إلى التسرع في بناء وهم وحدويٍّ سرعان ما ينصدع عند أول صدمة. معاذ الله أن نكون ممن يرضَوْنَ بالتجزئة، فأحرى أن ندعو إليها باسم قُطْرِيَّةِ العمل في مراحل التحرير. وإنَّ جمع الأمة من التفرق الغثائيِّ الخموليِّ، ومن اختلاف المذاهب، ومن تعدد المناهج والحركات، ومن قطرية الدويلات القومية، لمهمة ما سبق في الإسلام أن تصدى لمثلها جيل، ولا قاربها في سمو المطمح وخطورة التحدي ووُعورة الطريق سابقة.

جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلمة الإسلام أفرادا وقبائل أتوا مباشرة من الظلام إلى النور، من الجاهلية المحض إلى الإسلام الخالص. والتفت جماعة المسلمين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ألْفَافاً، المهاجرون والأنصار نواةُ الجماعة، ثم مِنْ حولهم الأعرابُ. وحدةُ قيادة، ووحدة مكان، والوحي يتنـزل فلا مكان لخلاف الرأي. واليومَ يأتي المسلم مهاجرا ونصيرا للدعوة والحركة المجاهدة من غير الأُفُق الذي أتى منه الجاهلي على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، له ارتباطاته مع سائر المسلمين، وارتباطاته الفكرية مع دعاة الإسلام يقرأ لهذا وذاك، وله تطلعاته يريد أن يختار أجدر المناهج والقيادات بثقته. ويطرح على نفسه عاجلا أو آجلا سؤال:

«من هم جماعة المسلمين» الذين معهم الحق، والذين يأثَمُ ويموت مِيتَةً جاهلية من لم يكن معهم ؟

أخرج سيف وابن عساكر عن الشعبي رحمهم الله قال: «لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملَّتْهُ قريش. وقد كان حَصَرَهُمْ بالمدينة وأسبغ عليهم (وسع أرزاقهم) وقال: إنّ أخْوَفَ ما أخاف على هذه الأمة انتشارُكم في البلاد. فإن كان الرجل ليستأذِنه في الغزو وهو ممَّن حُصِرَ في المدينة من المهاجرين -ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة- فيقول: قد كان لك في غزوك مع النبي صلى الله عليه وسلم ما يُبَلِّغُكَ. وخيرٌ لك من الغزو اليومَ أن لا ترى الدنيا ولا تراك ! فلما ولِيَ عثمانُ رضي الله عنه خلَّى عنهم. فاضطربوا في البلاد، وانقطع إليهم الناس. قال محمد وطلحة (رواةُ الحديث): فكان ذلك أوَّلَ وهْنٍ دخل في الإسلام، وأوَّلَ فتنة كانت في العامة، ليْسَ إلا ذلك».

حافظ عمر رضي الله عنه على وحدة الجماعة بحصر المهاجرين في المدينة، فلم يكن مجال لاضطراب الناس، أو ترددهم في معرفة هُوِّية «جماعة المسلمين». فلما تفرقت الجماعة وانتشرت في الأمصار شَكَّلَ كلُّ عالم من علماء الصحابة نواة جماعة علمية دعوية تربوية. كانوا أساتذة جيل التابعين، أساتذةً يوحدهم أنهم تخرجوا من مدرسة واحدة، وتلقّوْا التربية النبوية سواء. ويفرقهم الرأي، والطبعُ، والاجتهاد، والموقف السياسي. ومن جيل لجيل توالدت المدارس، فتعذر الإجماع الذي كان قريبا قبل الانتشار. تعذر الإجماع في فقه الدين، وفي فقه التربية، وفي الوَلاء، أو المجافاة، أو القومة للحكم أو عليه. مُرَّ بذهْنِك على هذه القرون وفِتَنِها، وما دخل على الأمة من وهْن، وما توالد من مدارس، وما نشأ من خلاف، وما حدث من لَعِبِ السياسة بالدين، وما طرأ من خمولٍ وموت على الهمم،

ثم حُطَّ رحالك مع المتسائل من إخوانك عن «جماعة المسلمين» التي تقدر ويحق لها أن تعيد للوجود دولة القرآن.

فقه المسألة

وإنه لسؤال جوهريٌّ يقتضي من المسؤول فقها دقيقا. وقد طرح العلماء قبلنا هذا السؤال على عصرهم. فنتصفح آراءهم نرجو أن يقدَحَ الله عز وجل لنا وميضا من حكمته لمستقبل هذه الأمة.

فصل الإمام الشاطبيُّ رحمه الله مذاهبَ الفقهاء في تعريف «الجماعة» الناجية في كتاب الاعتصام(1) نلخص منه ما يلي:

1. قالوا إنها السواد الأعظم من أهل الإسلام. قال أبو غالب رحمه الله: «إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق. ومن خالفهم مات مِيتَةً جاهلية، سواء خالفهم في شيء من الشريعة أو في إمامهم وسلطانهم. فهو مخالف للحق». وهذا رأي أبي مسعود الأنصاريِّ وابن مسعود رضي الله عنهما. وقال الإمام الحسين بن علي عليهما السلام لما سئل هل تصح خلافة أبي بكر رضي الله عنه: «إي والذي لا إله إلا هو، ما كان الله ليجمع أمة محمد على ضلالة» ! قال الشاطبي رحمه الله: «فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها وأهل الشريعة العاملون بها. ومَنْ سواهم داخلون في حكمهم، لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم».

2. رأي يقول: إنها جماعة أئمة العلماء المجتهدين، وإن جماعة العلماء جعلهم الله حجة على العالمين. وهم المعنيون بقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لن يجمع أمتي على ضلالة».

(1) الجزء 2، ص: 258 وما بعدها.

3. رأي يقول إنها جماعة الصحابة على الخصوص. فمن خالفهم ضل. قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «سن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووُلاةُ الأمر من بعده سننا، الأخذُ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله. ليس لأحد تبديلُها وتغييرُها ولا النظرُ فيما خالفها. من اهتدى بها مهتد، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، ووَلاَّهُ اللهُ ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرا». قال مالك رحمه الله: «فأعجبني عزم عمر على ذلك».

4. رأي يقول: «الجماعة هي جماعة أهل الإسلام. إذا أجمعوا على أمر فواجبٌ على غيرهم من أهل الملك اتباعهم». قال الشافعي رحمه الله: «الجماعة لا تكون فيها غفلة عن معنى كتاب الله ولا سنة ولا قياس. وإنما تكون الغفلةُ في الفُرقة».

5. رأي اختاره الطبري رحمه الله يقول: «إن الجماعة جماعةُ المسلمين إذا اجتمعوا على أمير». وحاصل هذا الرأي كما قال الشاطبي رحمه الله: «أن الجماعة رجعة إلى الاجتماع على الإمام الموافق للكتاب والسنة. وذلك ظاهر في أن الاجتماع على غير سنة خارج عن معنى الجماعة».

ويَخْرُج الإمام الشاطبيُّ من هذه الأقوال الخمسة بالزُّبْدَةِ التالية: «إن الجميع اتفقوا على اعتبار أهل العلم والاجتهاد سواء ضموا إليهم العوام أمْ لا. فإن لم يَضُموا إليهم فلا إشكال أن الاعتبار إنما هو بالسواد الأعظم من العلماء المعتبر اجتهادُهم. (...) وإن ضموا إليهم العوام فبحكم التبع لأنهم غيرُ عارفين بالشريعة، فلا بد من رجوعهم في دينهم إلى العلماء».

ونقول: إن مدلولَ الجماعة، ومدلولَ العلماء، ومدلول الاجتهاد، ومدلول السنة، اختلفت في أذهان الناس على مر العصور. فالطريق الواضحةُ التي تركنا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت

طريق جماعة مجاهدة، العلم فيها يرجع إلى العمل الجهادي، ويؤدي إليه، ويدل عليه، والاجتهاد والسنة لا يتعلقان بفقه العبادات الفردية فقط، وإنما هما أيضا منهاجُ السلم والحرب، والشورى، والحكم والقضاء، وفتح البلاد، ونُصرة الله ورسوله والمستضعفين. فلما استقر الملكُ العاضُّ تخصص العلماء في علوم فرعية من حديث، وأصول، وفقه، وفرائض. وتخصصوا في وظائف كالقضاء، والفتيا، والحسبة، والتدريس، والتأليف. واندمجوا في النظام الحاكم. فمن خلال هذا الاندماج وذلك التخصص اهتموا بالسنة، فأبصر منها كل منهم ما يقع في اهتمامه، واجتهد كلٌّ في إطار تخصصه ووظيفته، وانضم كل إلى موافقيه في المذهب والمدرسة. وقليل منهم كالإمام الغزاليِّ وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمهما الله من جمع من أطراف العلم ما حدا به إلى البحث عن تصور إحاطيٍّ للمنهاج السني في الفقه والسياسة، في أمر الدنيا والدين، في حق الحاكم والمحكوم. وزيادة على اختلاف هؤلاء المجتهدين الإحاطيين فيما بينهم، فإن أيّاً منهم، بعد القائمين من آل البيت عليهم السلام وكانوا علماء فطاحل، لم يضع في حُسبانه أنَّ فساد الحكم لا علاجَ له سوى تغيير النظام. اجتهادٌ رأوه وقدَرٌ من الله عز وجل حتى يأتي الأجلُ.

فإذا تحدث عمر بن عبد العزيز رحمه الله عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه فإنما يعني قبل كل شيء هيمنة الشريعة على كل صغير وكبير في شؤون الأمة، ابتداء من نظام الحكم. ولم يكن عالما مجتهدا بعيدا عن الحكم ومشاكله، بل جمع الله له إلى درجة الاجتهاد التي شهد له بها الأئمة من بعده فُرْصَةَ محاولة العودة إلى نظام الخلافة الراشدة. فحاول رحمه الله. لكن عندما يتحدث الشاطبيُّ بعد سبعة قرون من عهد ابن عبد العزيز عن الجماعة، وعن السواد الأعظم،

وعن الاجتهاد والسنة، فإنما يصدر عن هَمٍّ حزين لما آل إليه حكمُ السيف على عهد ملوك الطوائف ببلده الأندلس. ولم تكن هنالك أدنى فرصة للعلماء الغَيَارَى أمثالِه أن يُحاولوا جمع الجماعة وإعادة الإمامة إلى الشورى.

ونحن بعد ستة قرون من زمان الشاطبيِّ رحمه الله، نتصفح معه آراء أئمة الفقه في موضوع الجماعة الناجية، فنتَّفِقُ معه في منطوق اجتهاده من أن جماعة المسلمين همُ العلماء المتصدرون لقيادة العامة، وأنَّ الاعتبار لهم أولا والسوادُ الأعظم لهم تَبَعٌ. وخلفَ هذا المنطوق المشترك نفهم غير ما يُتَوَقَّعُ أن يقصده من كان في مثل ملابسات ذلك الزمان. نلتمس من وراء هذا المنطوق المشتركِ سُنَّةً تنافي البدعة والضلالة منافاة شاملة في ميادين الحكم كما تنافيها في ميادين الاقتصاد والقسمة، كما تنافيها في العقيدة والتعبد. ونلتمس جماعة يقودها علماء مجتهدون ومجاهدون جامعون مجندون كما كان المهاجرون والأنصار جامعين مجندين.

فإذا أطلقنا كلمة «جماعة» وكلمة «علماء» وجردنا مفهومهما عن الوظائف الجهادية التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤُه وأصحابه، فإن أي تجمع خامل ينتظم من قراء عليمي اللسان يمكن أن يطالب بأحقيته. وهذا بالضبط ما يرمي إليه «الإسلام الأمريكي» إذ يحشد قُرّاءً حَمَلَةَ شهادات أصحابَ ذَلاَقَةٍ يُسميهم «مجالس علمية» أو غيرَ ذلك من «مؤتمرات إسلامية» و«منظمات عالمية للثقافة الإسلامية». يحشد أعداءُ الإسلام القُرَّاءَ الخاملين الفصحاء لسانا، الخانعين همة، الساقطين عن رتبة العلم بانصياعهم للعدو، ليحاربوا بهم الدعوة المجاهدة. ويستمع «السواد الأعظم» من الأمة فصاحةَ القارئِ الصَّنيعَةِ، واستدلالَه بالآية والحديث، واطلاعَه على مذاهب

الفقه وأقوال الأولين، فيقارن مع الدعاة المجاهدين الذين ترفعهم نيتهم وصدقهم مع الله إلى مصاف الصحابة، المهاجرين الأنصار، وقد تقصر بهم العبارة أو ما يعطيه التخصص من اطلاع على الفروع فيزدري العامة بالدعوة ويحسبون النجاة مع كل ناعق.

وأشد هؤلاء القراء الخطباء الفصحاء الصنائع عن وعي أو قُصور شوكةً على الدعوة المتحدثون عن السنة والبِدْعة، ينتصبون قضاة يكفرون ويضللون. فلو أطلقنا كلمات «سنة» و«علماء» و«اجتهاد» و«جماعة» وتركنا مفاهيمها عائمة لا ارتباط لها بتدهور المسلمين ووجوب النهضة بهم، ولا بفساد الحكم وكفر الدعاة على أبواب جهنم، ولا بالتحديات القاصمة التي تهدد بقاء الأمة، لوجد كل صائد في المياه الكدرة غنيمة.

النواظم الثلاث للجماعة

لا يصح إطلاق اسم «جماعة المسلمين» واسم «أمير المؤمنين» إلا عندما يتأتى إجماع علماء الأمة المهاجرين الأنصار، ومن ورائهم سوادُ الأمة مُوافقاً مؤيدا، على هيئة إسلامية ولو تعددت في إطارها التنظيمات، ويختارون رجلا واحدا، يؤم أمة الإسلام في كل دار الإسلام. فإذا استقر هذا في ذهننا فالانتماء المنجي هو الانتماء إلى تلك الجماعة التي لا تزال في طي الغيب انتماء الوَلاَء، وانتماءَ التهيُّؤ، وانتماءَ تركيزِ الجهود للوصول إليها. فذلك هو الانتماء الـمُنْجي من المِيتة الجاهلية. ويجب على كل مسلم يضِنُّ بدينه وآخرته أن يدخل في وَلاية تنظيم إسلامي من تنظيمات المسلمين الحالية باجتهاده. ودخولُه فيها أيا ما كانت يعد تميُّزاً عن الرايات العميات بشرط أن يدفع العجلة

نحو مستقبل وحدة الجماعة والإمامة على صعيد الأمة، أقول: وحدة جماعة المسلمين، لا وحدة التنظيم. فإن وجد في التنظيم الذي انتمى إليه توانيا في تحضير وحدة المسلمين، فذاك هو الدليل على أنه زُجَّ به تحت راية عُمِّيَّةٍ، يجب أن ينفصل عنها ويفر منها فِرارَه من المجذوم.

وفي الطريق إلى أن يلتئم شملُ الأمة جميعا، وينتظم عِقدها، فهذه ضوابطُ شرعية لتجسيد الوَلاية قوة فاعلة تحقق الأهداف المرحلية القطرية. وهي بعدُ ضوابطُ لتوسيع الوَلاَية الجهادية وتصعيدها إلى يوم الوحدة. ثم ينتظم عليها بعدئذ أمر الأمة في دولة القرآن إن شاء الله.

1. الحبُّ في الله والبغض فيه. هذا هو المعنى القلبيُّ للوَلاية.

2. الشورى وإجماع الرأي والاتفاق على الخطة العامة. وهذا معناها العقلي. ولا يقدح الخلاف في الفروع والأسلوب بين تنظيمات العاملين في الإجماع المطلوب على الخطة العامة.

3. الطاعة للقيادة. وهذا معناها وشرطها العملي التنفيذي الجهادي.

في رَحِمِ هذه الأمة المباركة تتخلق «جماعة المسلمين». ومن الطبيعيِّ أن يبتهج كل جيل وكل فئة من المؤمنين بما يبدو لهم أنه المولودُ حانَ بروزُه، وأن يتسابقوا إليه ليكون ميلادُه على أيديهم، وأن يدعُوَ كلٌّ إلى حركة المخاض التي يشهدها حوله يحسب بُشْراهَا هي الحَدَثَ المرتقب. كلٌّ يحب أن يسوقَ الله الخيرَ على يديه. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. ما من الصادقين إلا من يُقَلِّبُ وجهه في سماء الدعوة يترقب فجرَ دولة القرآن، وما منهم إلا من هو مستعد ليهاجر وينصر ويأوي الحق. وقد تضيع طاقات الوَلاية عند الصادقين إن لم تُوَجَّهْ الوجهة الواحدة.

وما مَثَلُ هذه الأمة في تفرق أقطارها ومذاهبها إلا كمثل أرض واسعة زُلزِلَتْ زلزالَها فانشقت جُزُراً تفصل بينها بحارٌ من نار. وطال العهد فاختلفت لغةُ السكان، وذوقُ الطعام، ولونُ الحياة. ونسِيَ الناس ما كان لهم من وحدة إلا حكماءُ يذْكُرون العهد الأول قبل الزلزال، ويبشرون بعودته، ويسعون لتجديده. وقد نشأت في كل جزيرة أجيال لا تعرف ما قبل الزلزال، ولا تحب أن تسمع ما سوى الوجود المتكسر. فهي تحارب وتكيد كلَّ من يحن لما قبل الزلزال. أفرأيت إن لم يجمَعْ حكماءُ كل جزيرة جهود أنصارهم لتحرير الجزيرة أولا أكانوا يستطيعون وهم تحت الأغلال تحرير الجزُر الأخرى، وإطفاءَ النار، ورَدْمَ الفجوات ؟

تبسيط مُخِلٌّ ولا شك لمثال تجزيء الأمة والغزو الشامل المنظم عالميا علينا. ولا أقل من تنسيق بين حكماء الأمة وعلمائها المجاهدين وتنظيماتها الطليعية. لا أقل من التنسيق ولا يمكن حاليا أكثرُ منه. ومن رأيي العاجزِ أن يتناول التنسيقُ قضايا الوَلاية الكبرى في أفق المستقبل. قضيةُ تهذيب النفوس، وترفيع الهمم، وتصقيل القلوب، لنحب كل مجاهد ونتوق إليه، ونعتاد اعتباره عضوا من جسمنا. ثم قضية ترفيع الفهم، وتحرير العقل من عوائق الطائفية والمذهبية، ليتفاهم جند الله المنبثين في أرض الله على كلمة سواء. ثم قضية كسر الحواجز النفسية التي تحجب عنا أننا أمة واحدة من المحيط إلى المحيط، بل في الأرض جميعا خلفاءَ لله، وتنسينا عظمة الإسلام، وضرورة توحيد دار الإسلام تحت راية واحدة وإمام واحد في دولة القرآن.

قضايا ثلاث لا يمكن الفصل فيها في مُرافَعَةٍ وجلسة، بل هي قضايا أجيال. وكل تسرع في هذا الميدان فَخِدَاجٌ، أي إخراج للجنين قبل تخلقه وكمال نشأته.

ثم ليكن التنسيق الجزئيُّ، الوقتي الحركي، وسيلة لتلك الأهداف الكُبرى، لكيلا تجمح بنا الحركية، وضروراتُ الوقت، وأخطاؤنا في حق بعضنا، بعيدا عن الهدف الأسمى وهو الوحدة. لنترُكْ رجال كل قطر فهم أدرى بشِعابه يشقون إلى الوحدة طريقا من بين الفجوات والفرص والظروف الطارئة، ويتعاملون مع الذِّهنية المحلية، ويخاطبون الناس بلسان قومهم كما هي سنة النبوة. الجاهلية ملة واحدة، لا شك في هذا. لكن في جبهتها ثغرات، وبين آرائها تناقضات، تتجلى في ميادين الصراع العالمي على النفوذ في أقطارنا. هذا وغيرهُ من المنافسات والعداوات القطرية بين حكام الجبر يتيح للجماعة القطرية من إمكانيات العمل في هذه المرحلة ما يُعَطِّلُه الارتباط التنظيمي العالمي.

الجماعة القطرية

يبدو التحزب القطري هذا الذي نوصي به مُناقضا لوحدة «جماعة المسلمين» التي نهدف إليها. ولا تحزب هنالك إلا باعتبار ظاهر الأمر. وكما أن الشرع يبيح لفئة من الجيش حوصرت وانقطعت عن عاصمة الإمامة أن تختار لنفسها أميرا حتى تخْلُصَ إلى دار الإسلام، فكذلك الجماعة القطرية، ونظامُها وأنظمتها، وإمارتُها الواحدة أو المتعددة إن كان هنالك أكثر من تنظيم، ودولتُها القطرية الإسلامية. وإنما ينقُضُ العهدَ ويُفْسِدُ الوَلاءَ لله عز وجل ولرسوله وللمؤمنين، أن تكون القطرية حَلاً دائما، وكِياناً يراد له البقاءُ في التجزئة. وعندئذ تكون الجماعةُ جماعة نفاق، وإمارتُها إمارةَ شقاق، ودولتُها دولة الشيطان لا دولة القرآن.

إن نشوء الجماعة القطرية أو الجماعات القطرية المتعددة من بين التكتلات الحزبية المتعددة، أو إلى جانب الحكم المستبد العسكري والحزب الواحد، يَفْرِضُ عليها نوع التنظيم من سرية أو جهرية، وشكلِه وهيكلِه تبعا للظروف السياسية القطرية. ولكون السياسات القطرية تتموج تموجا سريعا فإن التنظيم العالمي لا يمكن أن يساير الأحداث بالمرونة اللازمة، ولا بالسرعة اللازمة. وإنَّ اتخاذ القرار محليا وبسرعة في الحالات الطارئة يقتضي استقلالية واسعة. نعم قد يتخذ هذا التنظيم الإسلاميُّ القطري، أو التنظيمات المتعددة المترابطة المتعاونة، قرارا يتعارض مع مصلحة هذا التنظيم العالمي أو ذاك إذا لم يكن هنالك حد أدنى من التنسيق.

ثم إن هذه الدويلات القطرية القائمة الآن لا يمكن تحريرها من الاستبداد جميعا في نفس الوقت، نظرا لتفاوت قوة الحركة الإسلامية فيها، ونظراً لدرجة تماسُكها على أوضاعها الفتنوية. فلا مناص من تحريرها واحدة واحدة، وبقائها على استقلالها بعد التحرير إلى أن يتم تسليكُها تدريجيا في سِلْكِ الوحدة.

وعلى هذا فمُهمة الجماعة القطرية، أو الرابطة القطرية المؤلفة من تنظيمات متعددة متعاونة متعاقدة، أن تتكون أولا، وتتقوى تربية وتنظيما وعددا وخبرة، ثم تكسب ثقة الشعب المسلم في القطر، ثم تكسب وَلاَءه ونُصرته حتى يقع الانسجام على كلمة الحق في السواد الأعظم. فعند ذاك تكون إرادة الطليعة المجاهدة هي إرادة الشعب، وحركتُها حركتَه، وقضيتُها قضيتَه. وتأتي ظروف الوقت يَوما لتملي أسلوبَ القومة الذي يرجع في خطوطه الكبرى إلى اتحاد الشعب على مواجهة دولة الباطل، وشل حركتها بالإضراب العام، والصمود في وجه عنفها حتى تسقط صريعة، أو الفوز الكامل في انتخابات

سليمة نزيهة. وقد تتعرض الجماعة القطرية أو الجماعات لعدوان باطش داخلي أو خارجي فيتعين أسلوبٌ مناسب للأحوال. وكل هذا يقتضي استقلالية كبيرة في اتخاذ القرار الحاسم في اللحظة الحاسمة.

على كل الافتراضات، وبعد مراحل التحرير، فالجماعة القطرية، أو الرابطة القطرية، مدعوة لتكون سَنَدا للدولة الإسلامية القطرية، تؤسسها، وتوجهها، وتزودها برجال من الصف، وتتحكم في أجهزتها أو تتمكن منها لترَوِّضَها على خدمة الأهداف الإسلامية القطرية ثم الوحدوية.

ربما تسمح ظروف الحركة الإسلامية أن يتوحد الصف في مراحل التهييء، وفي ظروف أخرى قد يتأخر توحيد الصف داخلَ القطر، وقد يتعايش حزب الله مع التكتلات الحزبية قبل القومة وبعدها.

الجماعة الواحدة والتعدد

إن مهمة الجماعة الجهادُ ومصارعةُ الأعداء والخصوم والأحداث قبل القومة وبعدها. فيكون توحيد الصف داخل القطر مطلبا ملحا في تنظيم واحد أو في رابطة تنظيمات متعددة متعاونة متعاقدة. فإن تأخر هذا التوحيد بسبب ما نعرفه من تشعبات عَمُودِيَّة ترجع إلى تعدد الانتماءات «العالمية»، أو بسبب الخلاف في الرأي، أو لأسباب نفسية أو تاريخية، فلا يمنعنَّ تعدد الجماعات في القطر الواحد من الزحف في جبهة اتحادية. أدنى ما يُطلَبُ إلى المؤمنين مهما كان التشعب أو الاختلاف أن يُسانِدوا المنهاج الأوضح، والكتلة الإسلامية الأكثر نجاحا وتوفيقا. فإن لم يكن فلا أقلَّ من مسالمة الفئات المخالفة للتنظيم المتصدي للقومة.

إذا كان أسلوب الوصولِ إلى الحكم الذي انتهجه حزب الله هو الدخول في معركة الديمقراطية واستغلال حقوق المعارضة لتبليغ الدعوة وتكتيل الشعب وراء القيادة الإسلامية، فالتنظيم الإسلاميُّ مقيدٌ بدستور الديمقراطية. وقد أعطت تجربة الشيخين حسن البنا والمودودي رحمهما الله أن بوسع الحركة الإسلامية والتنظيم القطريين أن يحققا الكثير رغم تلك القيود. فقد دخل كلا الرجلين الحكيمين في «لعبة» الديمقراطية، وخاضا لُجَّتها، وعانيا من ويلاتها.

ومتى سنحت الفرصة، أستغفر الله من زلل اللسان، متى أَذِنَ الله عز وجل فهيأ الأسباب لاقتحام حصون الباطل ونجحت القومة، زالت تلك القيود، وبقي حزب الله وجها لوجه مع التكتلات الحزبية. فإن ذهب حزب الله المتمثل في الرابطة الإسلامية يَكُمُّ الأفواه جميعا، ويمنع الأحزاب الديمقراطية الفتنوية، فوَّت على نفسه فُرصة تعليم الشعب كيف يقارن بين الحق والباطل. وربما يُعطِي لخصوم الإسلام وأعدائه فُرْصَةً ليروجوا بضاعة المعارضة السرية، وهي مطلوبة ونافقة أثناء أزماتِ الحكام. ولن يَعْدَم حزبُ الله بعد القومة من الأعداء من يزيد مصاعبَ التغيير الطبيعية تأزُّما ليُطيح بالقومة. فالموقف الأذكى الموافق للشرع الإسلامي هو إفساح المجال لمن خالفنا في الرأي ليطرح ما عنده.

أما التعامل مع المخالفين منا من التنظيمات الإسلامية التي لها سابقة في الجهاد قبل القومة، فيكون على أساس أنَّ حزب الله واحد في الأمة كلها، مهما تعددت التنظيمات في القطر الواحد. ومن ثَمَّ فهي مرحلة يَحْتَمِلُ فيها التنظيم المتصدي الوجودَ الأخويَّ لزملائه في الجهاد، وجوداً يسمح لهم بالتعبير، والتحرك، والمشاركة في اختيار رجال الشورى والحكم، في انتظار توحيد حزب الله القطري

في رابطة إسلامية تستقل في إطارها التنظيمات وتتعاون. ومن موقف القوة ينبغي للتنظيم المتصدي أن يفصح عن نيته الأخوية وأن يبرهن عليها بالإخاء الفعال إزاء زملاء الجهاد. وهذا بالأسف ما لم يحدث حتى الآن في إيران بحق علماء السنة من جانب إخوتهم الإمامية. على أن حالة تعدد التنظيمات في القطر الواحد بعد القومة يمكن أن تتجدد داخل المذهب الواحد لخلاف تربوي أو تنظيمي أو لتشعب عمودي ناشئ عن الانتماء «العالمي»، أو لغير ذلك من الأسباب.

المعارضة المخربة

السمة الأولى البارزةُ في نظام الحكم الديمقراطي الجاهلي هو السماح للآراء أن يُعبَّرَ عنها ويُدعى إليها. حق المعارضة للحكم، وانتقادِه، وبيان معايِبِه وأخطائه مضمونٌ في دساتيرهم. بالطبع هذا تفوق كبير على أنظمة الفتنة في بلادنا. ولا خلاف أن أمر الأمة حين يصبح شورى بينها تحت دولة القرآن يفرض أول ما يفرض حق كل مسلم وكل فئة من المسلمين في التعبير عن الرأي، وانتقاد الحاكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. بل يفرض، وهذا تفوق حاسم على كل الأنظمة البشرية، أن يقوم كل مسلم بأداء واجبه الديني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إذا أخل به نقص دينُه، وضاع منه ثواب الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر الحافظين لحدود الله.

نعم سيدي. لكن المعارضةَ والنقد إن كانا وسيلتين للعنف والتخريب، أو كانا افتراء وبهتانا وتآمرا على دولة الحق فلا مكان لهما بيننا. ما أسرع ما ترتفع رؤوس الفتنة غداً لتعارض القومة الإسلامية، وتزرع في طريقها الأشواك! سيقوم من المثقفين المغربين

من ينتقد لونا من ألوان الحكم لا عهد لهم به. اليمينيون منهم سينكرون وقوف حزب الله إلى جانب المستضعفين، واليساريون سيدفعون المزايدة في هذا الاتجاه، وأهل المصالح والامتيازات سيضجون ويتآمرون ويهرِّبون الأموال، وكل من يَفطِمُه الإسلام على ثدي كان يمتصه، أو فساد كان يمارسه، أو ترف كان يرتَعُ فيه، أو استغلال كان يُدِر عليه المال الحرام، سيقوم ليُسْهِمَ بمِعْوَله في تخريب القومة الإسلامية ودولة القرآن الوليدة. سيقومون بإيواء الفتنة في مخابئ المؤتمرات، بعد انهزامها من على وجه الأحداث. وسيُنَفذون مخططات الجاهلية لعرقلة سيرنا. لكل هذا لا بد من تطويق عمال التخريب وأُجَراءِ الهدم.

ويبقى الصادقون ممن لهم سابقة جهادية أو ممن لحقهم بإيمان. فلهؤلاء الحق في إبداء رأيهم، ونقد الحكومة، وطرح برامجهم البديلة داخل تنظيم الجماعة القطرية أو الرابطة القطرية، يتألفون إلى داخلها من أبواب الوَلاية الثلاثة: التحاب في الله، والتفاهم مع حرية الاجتهاد، ثم الطاعة لله ولرسوله ولأولي الأمر.

الإسلام دين جماعة

إن هذا الدين دين جماعة، فلذلك شرع الله عز وجل الصلاة جماعة، يجتمع عليها المسلمون خمس مرات في اليوم والليلة على صعيد الحي، وشرع الجمعة يجتمعون عليها مرة في الأسبوع على صعيد الجهة والمدينة، وشرع صلاة العيدين والحج للاجتماع بين يدي الله عز وجل على صعيد القطر وعلى الصعيد العالمي. هذه التجمعات المتكررة أصبحت فارغة في عهد الفتنة من معانيها في التراحم، والتحاب،

والتعارف، والتناصح، والتناصر، والتوالي، والتعليم، وتفقُّد أحوال الجار، والتعاون مع المسلمين على البِر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتحت دولة القرآن يرْجِع للمسجد مكانتُه، وتُشَجَّع التكتلات المحلية، والمهنية، والتعاونية، والخيرية، فتنظم في اتحادات نصيرة للجماعة، جماعة المسلمين المترابطة المتعاونة، تابعة لها مؤيدة.

وقد ذكرنا في كتاب «المنهاج النبوي» عضوية الجماعة وشروطها ومراتبها فلا حاجة لتكرار ما كتبناه. لكنَّ حديثنا هناك وقَفَ عند مرحلة التربية والتنظيم والزحف. فنـزيد هنا أن الجماعة أو الرابطة بعد توليها الحكم ينبغي أن تجند الشعب بكل فئاته وأصنافه بجانبها، فيقع الانتماء إليها من خلال هذه الاتحادات، وتتداخل هذه الاتحادات مع الجماعة بواسطة أعضاء من ذوي السابقة والهجرة، يُشرِفُون على الاتحادات، ويربون، ويوجهون. وتكون هذه الاتحادات واسطةً بين الجماعة الأم وبين «السواد الأعظم»، وهو التعبير الإسلامي عن «الجماهير الشعبية» فمن خلالها ينتشر في الشعب حتى قواعِدِهِ تأثير الجماعة وتربيتُها وتجنيدُها. وبالتحرك النشيط لمنظمات الشباب، ولجمعيات الدعوة، والتعليم، ومحو الأمية، والجمعيات النسوية، والرياضية، المتفرعة عن الجماعة يصل نداءُ الدعوة إلى كل بيت وإلى كل شخص. ويُعمَّمُ بناء المساجد وملحقاتِها في كل ركن لتؤوي صلاة المسلمين، وتعليم المسلمين، وجندية المسلمين، وتربية المسلمين.

الفصل الرابع

القيادة

- مرحلتان
- العدد والتنظيم
- قيادة قوية لمواقف رديئة
- الإمام قُطْبُ الأمة
- قيادة رصينة لعالم مضطرب
- ولو اتبع الحق أهواءهم
- القرار للقائد الإمام
- أمراض الجماعة
- العجب
- البطانة

مرحلتان

الجماعة الطليعة واحدة في القطر أو متعددة داخل رابطة بمثابة كائن حي، في مرحلة أولى يُولَد وينشَأ حتى يصْلُبَ عودُه، ويقدر على الاستقلال برعاية نفسه. وفي مرحلة ثانية، بعد اكتسابه قدرة ذاتية، يدخل في طور الاستمرار والبقاء، والنموِّ والقوة.

1. مرحلة تأسيس الجماعة تُبْرِزُ أشخاصا يملكون من خصال الشجاعة في الحق، والدراية بالواجب الشرعي، والغيرة على مصير الأمة، ما يؤهلهم للقيادة تأهيلا أصيلا. فهم آباء الجماعة وأمهاتها، وعن جدارة واستحقاق، ونتيجة لسابقتهم الجهادية تبَوَّأوا الصَّدارة. هذا يُسَمَّى في لسان السياسة بالقيادة التاريخية. فمن هذه القيادة التاريخية ما ينفرد فيه شخص ممتاز ربانيٌّ، كالإمام البنا رحمه الله، بالمبادرة الموفَّقة، ومنها ما يظهر بتآلف رجال دون ذلك ألمعيَّةً. وفي مدى حياة المؤسسين لا تكاد تختلف الجماعةُ على أشخاص القيادة. لكنَّ الخطرَ أن يُعْتَبَروا معصومين عن الخطإ، مُنـزَّهين عن أن يتناوَلَهم النصحُ والنقدُ. والخطر الأكبر أن تُغَطِّيَ شخصيات المؤسسين الأعْيُنَ عن الأصل وهو شخص القائد النبي صلى الله عليه وسلم، وسنته، وسنةِ الخلفاء الراشدين من صحابته. فمهما كانت عبقرية القيادة فبذلك المعيار النبوي الراشديِّ يجِبُ أن تُقاس. وكثيرا ما يكون تفوق الرجال الأفذاذ حجابا لمعاصريهم، وخاصة لتلامذتهم وأتباعِ مدرستهم، عن مصدرِ كل تشريع، ومنبع كل رُشد وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبذلك يقف الاجتهاد ويَخُبُّ الناسُ في التقليد ويضَعُونَ. وهو ذاك ضمورُ العقل، وتراجعُ العزم، وسقوطُ الهمم.

2. مرحلة بلوغ الجماعة رُشْدَها واستقلالَها بذاتها تُلزِم الجماعة أن تختار القيادة من بين الأقران. ذاك أوانُ الشورَى والرجولة. وفي هذه المرحلة تظهر ثمارُ التربية من تمكّن الرجال في أخلاق الصدق، والتعاون، ونَبْذ حب الرئاسة، والتنازل عن الرأي الشخصيِّ لتبني رأي الأغلبية.

العدد والتنظيم

إن الجماعةَ، أو رابطة جماعات متعاونة متعاقدة، القادرة على إبطال الباطل وإحقاق الحق هي الجماعة المكتملة البِنْيَةِ المتينةِ الارتباط. فإذا مثّلناها بالجسم البشريِّ فعضَلاتُها كثرة العدد، وهيكلُها العظميُّ رجال التنظيم ونُقباؤه، والدمُ الساري فيها الـمُحْيي لها هو الإيمان، وسائرُ الأعضاء الداخلية والحواس هي الأجهزة القيادية، حتى نصل إلى القيادة العليا التي هي بمثابة الرأس المفكر والقلب المحرك.

إن العدَدَ سِلاحٌ حاد إن التف حول قيادة الأشداء الرُّحَماء. فإذا كان العددُ هزيلا ضاعت جهودُ القيادة في فراغ العُزلة، وإن تضخم العددُ بلا تنظيم، أيْ بلا قيادة منظَّمة منظِّمة بفتح الظاء وكسرها، فإنما هو جسم منبطح بلا روح، أو حيوان هائج يخرب لكن لا يقدر على بناء. فلا نَغْتَرَنَّ بكثرة العدد السائب، ولا نَسْقُطَنَّ في عبادة «الجماهير الشعبية» المضطربة على هواها. نعم، جسمُ الأمة هو السواد الأعظم، وبمشاركة هذا السواد الأعظم فقط يمكن أن يتغير مجرى تاريخنا. لكن مع نظام وتجنيد، أيْ مع قيادة محبوبة، مربية، مطاعة.

وللقيادة والتنظيم أصولٌ وقواعدُ ذكرنا بعضها في «المنهاج النبوي» ونذكر في هذا الكتاب بعضها إن شاء الله تعالى. وإنَّ الجسمَ المجاهد

المدعُوَّ للمقاومة تحت أنظمة الفتنة، ثم الزحف والإطاحة بالباطل، ثم حمل سلاح الدولة، والإدارة، والسياسةِ العامةِ، والاقتصادِ، والبناءِ، ولَمِّ شمْلِ المسلمين في الأرض، والدفاعِ عن حوزتهم، وتقرير مصير الإنسانيةِ، لا يقدر على شيء من ذلكَ إلا بتنظيم فولاذي. ويعني التنظيمُ سَلْكَ السواد الأعظم في النواظم الثلاث الجامعة لشروط الوَلاَيةِ كما ذكرنا في فصل سابق. ألا وهي التراحم والتحاب في الله بيننا، ثم التشاور والإجماع على رأي واجتهاد، ثم الطاعةُ لأولي الأمر منا. ولا ينـزل على السواد الأعظم من السماء، ومع الملائكة، سكينةُ التراحم، ولا وحيُ الإجماع، ولا الأمر المقدَّسُ المطاع. إنما يَنْظِمُ في سلك هذه الأخلاق قيادةٌ تُشِعُّ من ربانيتها معاني الرحمة والذلة على المؤمنين والشدة على عدوهم، ويشع من عِلْمِها نورُ التوفيق للرأي السديد والاجتهاد الرشيد، ويشِع من حِفظها لحدود الله مهابةٌ معنويَّة تجعل طاعتها وفداءها بالأنفس مَطْلَباً عزيزا. ما أهونَ أن يُحِبَّ الناس ويتابعوا في الرأي ويطيعوا معصوما يُوحى إليه. لكن كمال الرشد بعد عهد النبوة أن تنبثق القيادة من الإرادة الحرة لأهل الحل والعقد من الجماعة ومن اختيارها، ثم تنقاد الجماعة، والجماعات المتآلفة في رابطة، قلبا وعقلا وقالبا لأولي الأمر منها، والأمة من وراء ذلك.

قيادة قوية لمواقف رديئة

تتضاعف أعباءُ القيادة برداءة المواقف التي توجد فيها الدعوة، وانحطاط السواد الأعظم خُلُقا وعِلْما ودينا، وغياب معاني الوَلاية والجهاد من أُفُق إسلام الخمول. عندما تكون حالةُ شعب على ما نعرف من حالنا الحاضر فإنَّ السواد الأعظم، بل الأمة بكاملها، قابلةٌ للاستعمار والاستبداد، لا تستطيع أن تحرك ساكنا، ولا أن تغير منكرا.

إنها نُقلةٌ من ماضي الانحطاط إلى مستقبل العزة والكرامة. رحلةٌ شاقة بعيدة المرمى عبر مجاهل الطريق، وخلالَ فِخاخ العدو، والعِبءُ الثقيلُ على الأكتاف. قوة القيادة في هذه الرحلة تعني الحياةَ أو الموتَ. يقول محمد إقبال رحمه الله: «إن الإمام الحقَّ وإمامَ العصر هو من يبعث فيك المقتَ والكراهة للحاضر الموجودِ، يُريك وجه الحبيب في مرآة الموت، فيُنَغِّص عليك الحياة، ويبعث فيك الشعور بالخسارة، فيبعثك بعثاً جديداً، ويَسُنُّ حَديدك بالفقر، فتصبحُ سيفا بتارا لا يُبقي ولا يذر»[1].

تأمل إن شئت شِعْرَ هذا الرائد الإسلاميِّ الحكيم، واحتفظ بأنّ حديد الأمة كليلٌ يحتاج إلى قيادة تسُنُّهُ حتى يصنع منه «سيفا بتارا لا يُبْقِي ولا يَذَر» من أسباب الانحطاط ومخلفاته دَيّاراً.

الإمام قطب الأمة

يكثُرُ الحديث في عصرنا عن القيادة الجماعية ومزاياها، وكونِها دِرْعا سياسيا يحمي الشعوبَ من الاستبداد. ونحن نشارك كل حكمة بشرية تخشى استبدادَ الفردِ وتَفَرْعُنَهُ وتسلُّطَه. ونحتاط في ذلك أكثر من احتياط الناس نظرا لأن أمراضنا وانحطاطنا ترجع إلى الحكم العاض والجبريّ، وهما الصيغتان اللتان سادتا نظام الحكم فينا بعد فجر تاريخنا مباشرة وحتى الآن. فلا نحب أن تتكرر المأساة. بيد أن جميعَ الأنظمةِ المعاصرةِ المتطوِّرةِ، الأكثرِ منا خبرةً في ميدان السياسة، المتفوقةِ علينا في تقنياتها كتفوقها في العلوم الكونية والاختراع، تُسْنِدُ

(1) ذكره الندوي رحمه الله في كتابه «ربانية لا رهبانية»، ط 2، ص: 122.

الزَّعامةَ لشخص، وتتحلق الشعوبُ حوله، فيكونُ مصدَر المبادرة، ومرجِعَ الرأي، وموَجِّهَ كل نشاط. لا كَلاَمَ في البلاد الشيوعية حيث يستبد الحزب الحاكم على الشعوب، ويستبد شخص رئيس الحزب على الجميع. أشاعوا بعد موت الجبار ستالين أن القيادة أصبحت جماعية، فلم يلبثوا أن طلع عليهم شخص خرتشوف الأهوج، ثم بْريجنيف الذي نصب نفسه صنما مُحَلّى بالنَّياشين والألقاب، ثم أندربوف رئيسُ المخابرات، وبالتالي صاحبُ القبضة الحديدية.

في الجهة الأخرى من شِقَّيْ الجاهلية، حيث مَوْلِدُ الديمقراطية ومهدُها في الشعوب الأنكلوسكسونية، يتشكل نظام الأحزاب من هرمية لها قاعدة ولها رأس. وأيُّما حزب وصل إلى الحكم فرأسُه هو رأسُ الدولة. رجلٌ واحد إليه تنتهي الكلمةُ، ومنه ومن حوله تنطلق المبادرة. وقد عانت دولٌ مثلُ فرنسا وإيطاليا من النظام البرلماني الذي لا يُقِرُّ رأسا واحدا للدولة وإنما يجعل لها رؤوساً. فآبت فرنسا للسلطة المشَخَّصَةِ في رئيس الجمهورية، ولا تزال إيطاليا تعاني من تعدد الرؤوس بعد نكبتها الفاشية على عهد موسليني. أما ألمانيا فقد خرجت من الحرب العالمية الأولى منهزمة، وانهار نَقْدُها واقتصادُها، وازدادت حالتها رداءة فاشرأبت الأعناق إلى منقذ، فظهر المجنون هتلر، وقاد استبدادُهُ الأرعن، المستند إلى أشْنَإِ ما في الشعوب من أنانية وهي الأنانية العرقية، أوربا والعالـمَ إلى حافة الدمار.

فأنظمة الحكم كما تستحقها الأمم حالةَ ضَعفها، أو كما تريدها حالةَ قوتها وتمكُّنِها، لا تخلو أن تكون على واحد من ثلاثة أوجه:

1. استبداد فرديٌّ فيه مزيد هَلَكَةٍ للشعوب المغلوبة على أمرها. ومن أنواعِهِ مُلْكُنا العاض والجبري.

2. قيادة جماعية، في زعمها، لا تلبث واجهتُها أن تتكشف عن «المنقذ» الجبار كما وقع في روسيا، أو تستمر في نوع من الفوضى الديمقراطية العامة كما هو حال إيطاليا منذ سقوط موسوليني.

3. قيادةٌ شخصية منتخَبة مسؤولة أمامَ الشعب وممثليه. وإلى هذا انتهت حكمة الشعوب. ومنه كان ابتدأ تاريخ الخلافة الراشدة وإليه يعود إن شاء الله تعالى.

لن نتحدث هنا عن اختيار الإمام وشروطِ كفاءته، ووظائفه ومسؤولياته، فلذلك مكان خاص يأتي بإذن الله العلي القدير. لكن نركز على أهمية تشخيص القيادة في رجل مختار مسؤول حوله تدور رحى الجهاد. اسمع هذا الوصف الرائع لمقام الإمامة في الإسلام: «ومكان القيِّم بالأمر مكانُ النظام من الخَرْزِ (أي كمثل الخيط الذي تُنظَم فيه حباتَ العقد)، يجمعه ويضُمه. فإذا انقطع النظامُ تفرق وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبدا.(...) فكن قُطبا واستَدِرْ الرحَى بالعرب»[1]. ممن يصدر مثلُ هذا القول البليغ إلاَّ من رجل الإمامة والزَّعامة والبلاغة عليٍّ عليه السلام. كتب ذلك إلى عمر رضي الله عنه.

ونجد في كلامه العُلْوِيِّ وصفا لمهمات الإمام المركزية الرئيسية. قال رضي الله عنه وقد سأله جندُه أن يَخْرُجَ بهم بنفسه في بعض الوقائع: «ما بالكم، لا سُدِّدْتُمْ لرُشدٍ، ولا هُديتُم لِقَصْد ! أفي مثل هذا ينبغي لي أن أخرج ؟ إنما يخرُجُ في مثل هذا رجلٌ ممن أرضاه من شجعانكم وذوي بأسكم. ولا ينبغي لي أن أدَعَ الجند والمِصْرَ (أي العاصمة)، وبيت المال، وجباية الأرض، والقضاء بين المسلمين، والنظر في حقوق المطالبين، ثم أخرجَ في كتيبة أتبعُ أخرى أتقَلْقَلُ تَقَلْقُلَ القَدَحَ في الجَفِير

(1) نهج البلاغة، ج2، ص: 29.

الفارغ (السَّهْم في الكِنانة من الجلد). وإنما أنا قطْبُ الرَّحَى تدور عليَّ وأنا بمكاني. فإذا فارقته استحار (تردد) مدارُها، واضطربَ ثِفالها (قاعدتُها)»[2].

إن عبقرية فكر كل أمة تتجلى في لُغتها، في مَجازها واستعاراتها. ولغتُنا العزيزة حين ينطق بها حكماءُ الأمة تكتنـز مثل هذه الدرر الثمينة التي قرأناها. فمثالُ الخيط الذي لا نظام للدرر النفيسة بدونه، ومثالُ قُطب الرحى الذي لا مدار لها ولا قرارَ بدونه، يُصَوِّرانِ أهمية القائد الإمام بالنسبة لقيمة العِقد وفاعلية الطحن. أرأيت كيف تجمع هذه الكلمات الوجيزة إلى جانب براعة التصوير الدَّلالَةَ الدقيقة؟ فقطب الرحى منتصب وَسَطَ قاعدتها، وكذلك الإمامُ إن برز من وسَط الأمة. والقطبُ مركزٌ بالثِّفالِ متماسك به وكذلك الإمام إن كان من الأمة وإليها، تحيط به، وتعَضُّ على قيادته بالنواجذ. وبانتصابه على القاعدة وتماسكه معها يكتسب القوة والاستقرار اللازمين ليثبُتَ على هزِّ الدوران، ويمنع العملية كلها من الاستحارة والاضطراب.

قيادة رصينة لعالم مضطرب

تتحمس الجماهير وتفور حيويَّتُها إزاءَ التغيرات السياسية الـمُثيرة. لكن سرعان ما يعقُبُ ذلك الحماسَ سكونُ الرِّيبَةِ، وخَيْبَةُ الأمل، عندما تصطدم الثورة بعناد الأحوال، فتمنعُها من التحول إلى الأفضل. لذلك نرى الانقلاب يتبع الانقلاب في البُلدان الضعيفة البِنْية، المتخلفة اقتصاديا وسياسيا، الكثيرة المشاكل، كبلادنا. فمن خيبة أمل إلى خيبة أمل. وتجد كل مغامرة من الطموح المراهِقِ، والأمل المكبوت، ظروفا تساعد على استمرار الاضطراب. فقوةُ

(2) نهج البلاغة، ج1، ص: 221-222.

القيادة، ورَصانتُها، واستمساكُها مع القاعدة استمساكا وثيقا ينبني على الوَلاية الإيمانية لا على الوعود البراقة والخُطبِ الرَّنَانة، تضمنُ وحدها العِصمةَ من اللَّفِّ والدوران والاستحارة.

يَتبخَّر الحماسُ الأول بعد إعلان سقوط الباطل، ويتنفس الناس الصُّعَداءَ، ويُنَفِّسونَ عن آلامهم المكبوتة بالزفير والشهيق الثَّوْرِيَّيْنِ. وبعد هذه العفوية الجماهيرية لا يبقى إلا حديدُ المشاكلِ الباردُ. فمن يُحميه ويُطَرِّقُه ليصوغ الاقتصادَ الذي يسير، والعدلَ الذي ينتظره الشعب ؟ من يُحافظ على جِذوةِ الأمل، ومن يربي، ومن يتخذ القرار الشجاع في المواقف الدقيقة ؟ من يخرج بالسفينة الموحولة الـمُثقَلَةِ الـمُخَرَّقةِ القاع من بين تلك الصخور ؟ والمعضلاتُ تُلِحُّ، وكلُّ يوم يأتي بتعقيداته. فمن يتحمل المسؤولية، ويأمر، ويتخذ الإجراءات الحاسمة ؟

لا يترتب على مبادرات القيادة قبل القومة، مهما كانت الأخطاء، مثلُ ما يترتب عليها أثناءها وبعدَها. ففي تلك الساعات الدقيقة التي يتحول فيها مجرى حياة أمة، وفيما بعدها من أيام وشهور وسنوات يتقرر فيها مصيرها، تظهر كفاءةُ القيادة ورصانتُها وبراعتُها. إذ ذاك يتلخص تاريخ الأمة في تاريخ قيادتها. وإذا كانت صورةُ سلك النظام وخَرَزِه وجواهره وجَماله استعارةً تناسب حال الجماعة وقيادتها أيام السكون والاستعداد، فإن عنف حركة الرحى، وسرعة دورانها، لا يكادان يناسبان عُنفَ الأحداث وسرعتَها أيامَ يتقرر مصيرُ القومة. فإذا أضفت إلى صورة العنف والسرعة صوْتَ القصْف والقَنْبَلَة من كل جانب، وهَمْسَ الـمَكائد الخفِيَّة، فإنما هو الهَوَسُ بعينه، إن لم تكن القيادةُ راسخةً ثابتة الأقدام متوكلة على الله عز وجل حق التوكل.

إنما يصح التوكلُ على الله، وتثبُتُ الخُطَى، إن اتخذتْ القيادةُ أُهْبَتَها لمثل تلك المواقف من قبلِ أن تجد نفسها وسَطَ المعمعة. أحوجُ ما يكونُ الصفُّ إلى الوحدة عندما تشتد الأزمةُ، وأحوج ما يكون الجند إلى معرفة مهمة كل منهم عندما تتداخل المشاكلُ، وأكثرُ ما تكون حاجة القيادة إلى ثقة الجند عندما تعم الريبة وتُشَنُّ حَرْبُ التشكيك. يومئذ تُمْتَحنُ الوَلاَيَةُ في نواظمها الثلاث: أين الشدة أيها المتراحمون ؟ أين التفاهمُ واتحاد الكلمة ؟ أين الطاعة بعد الشورى ؟ ويومئذ يُمتحَنُ التخطيط والتدبير: ماذا أعددتم لهذه الطوارئ أيها الحكماء ؟ أم أنتم ترتجلون وتخْبِطون ؟

أثبتَتْ تجاربُ الأمم أنَّ هذه الشعوب المتخلفة الناشئة في أفريقيا وفي سائر بلاد المستضعفين لا يستقيم لها أمر إلا بقيادة قوية، فوجه «المنقذ» المستبد يُطَمْئِنُ الضعفاء. ولا تكتمل في عين الجماهير هَيْبَةُ القيادة إلا عندما تتشخص في اللباس العسكري، والجُرأةِ العسكرية، والخشونةِ العسكرية. وإن معارك الاقتصاد والتمويل لأشدُّ من معارك الميدان. لذلك يجلس العقيد على كرسي الحكم كما يجلس في غرفة العمليات فيُصدر الأوامر، ويتخذ القرارات، لا يقْبَلُ الرد، ولا السؤالَ، ولا الاستفسار. نشاهد أن أقطارنا الإسلامية، رغم تاريخها الطويل، تدخل في عهد الحكم العسكري، فتستوي بذلك في التخلف السياسي مع دول أمريكا الجنوبية المحتلة من زمان من قِبَلِ عساكرها، ومع دول أفريقيا الناشئة. فهل وحَّدَتْنَا وإياهم المواقفُ التاريخية المتشابهة ؟ ألا يمكن في هذا العالم المضطرب أن يقود الثورةَ التي تُمْليها حالةُ تخلفنا إلا العساكرُ ؟ ألا يملك غيرُهم الجرأةَ على الفصل في معارك الثورة الاجتماعية السياسية الاقتصادية كما يَعْرِفُونَ هم الفصلَ في معارك الضرب والقصف والهجوم والدفاع ؟

إنها ضرورة تاريخية أن يقودَ البلادَ الـمُثْخَنَةَ بجراح الاستعمار، المنحطَّة في ميزان التحضر والتنظيم، قيادةٌ ترتفع إليها الأنظارُ، وتلتف حولها الآمال، وتُعْقَدُ على رَباطة جأشها الـمُنحَلاَّتُ من العزائم. وما القيادات القسرية العسكرية إلا البديلُ الزائفُ لهذه القيادة التي تطلبُها الأحوالُ، ولَمَّا تجتمع شروطُها في تنظيم من الشعب وإليه. ولئن نجحت في أمريكا الوُسطى بعض الثورات الشيوعية فلأن الشعوب الصغيرة هناك، بعد أن كابدت ويلاتِ الحكم الفرديِّ العسكري، وجدت قياداتٍ منها وإليها فكمُلَتْ مقومات الثورة بإديولوجية جاهزة، وسنَدٍ دُوَلِيٍّ مستعد راغب في نشر مذهبه.

كاسترو أنصعُ دليل على ما للقيادة القوية من أهمية في بَلْوَرَة الثورة، وشَقِّ الطريق الصعب. وما ارتمى هو وجماعتُه في حضن الشيوعية إلا ليملأ الفراغ المذهبي، ويكسِب السند الاستراتيجي. الموقفُ هناك وهنا في بلاد الإسلام يتطلب تغييراً ثوريا، يتطلب حمل الناس على ما يكرهون، وسوْقَهُم إلى حياة جديدة تُزْعج المصالح المستقرَّةَ، والتحالفات الـمُرْبِحةَ، والطبقات المستفيدة من الفساد. هناك لفقوا على رأس القيادة الشعبية لواء المذهبية الشيوعية لتتم المقومات، وهنا لا يمكن التلفيق. ولا يفيد وجودُ شريعة مُعطَّلة. إنما تَحْيى الشريعةُ بوجود من ينكر المنكر ويزيله ويَفرض المعروف.

ولو اتبع الحق أهواءهم

تنتظر الأغلبية الساحقةُ من الشعوب المهضومةِ الحقوق أن تأتيها الثورة بالرخاء الاجتماعي، والكرامةِ، والصحةِ، والتعليم، وكلِّ ما حَرَمَهَا منه النظامُ الفاسدُ على طبق من فضة. فورا.

وبلا جُهد. لهذا تتحمس الجماهيرُ، وتفور فيها الأمانيُّ. والقومة الإسلامية تُعْقَدُ عليها الآمالُ العظامُ، آمالُ الرخاء، والكرامة، والصحة، والتعليم، والعدل، أيضا. ولن تستطيع القومة أن تقدم ذلك على طبق من فضة لقوم نائمين، ولا أن تُهْدِيَ إليهم كلَّ صباح رزقَ اليوم، وحلاوتَه وكِفايته، بدون أدنى جُهد منهم. لن تستطيع ذلك كما لا تستطيعه أية ثورة أخرى. هنالك وعد الله عز وجل بالتوفيق وإغداق النعم والبركات على كل قرية آمن أهلها واتقَوْا. لكنَّ هذا الوعد مربوطٌ باتخاذ الأسباب. وأولُ هذه الأسباب أن تكون القيادة صادقةً مع الجند، صادقةً مع السواد الأعظم، صادقةً بين يدي ذلك وخلالَه ومن خلفه مع الله عز وجل ومع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

تُمَثَّلُ مأساةُ الانقلاباتِ ومَهْزَلَتُها كما يلي:

1. زُمرةٌ من «الضباط الأحرار» الغاضبين على الوضع الفاسد تحتل مؤسسات الدولة وتُلقي القبضَ على رؤوس النظام. وتُنْذرُ دوريات الدبابات في الشوارع بأنَّ سادة البلد الجُدُدَ لا يمزحون. ضجيجٌ في العالم.

2. من بين الضباط من دفعتهم الغَيْرةُ الحقيقيَّة، ومن بينهم المغامرُ قَانصُ الفُرص. لا تَفاهم. لا يَعرف بعضُهم ما يجري في ضمائر بعض. ولا اتفاق على فكرة واحدة، فأحرى أن يحصل الاتفاق على خُطة كاملة. الشروطُ كلُّها متوافِرَةٌ لنشوء أزْمَاتٍ في القمة.

3. بُشْرَى تُزَفُّ للشعب وَوُعودٌ وحماسٌ.

4. تختفي من المسرح وجوهٌ وتظهر وجوه. صوتُ المذيع ولهجته يتغيران، كما تتغير اللغة المذهبية. شُرْطَةٌ تذهب وأخرى تجيء.

5. يبرُدُ الحماسُ، وتُخْلَفُ الوعودُ، ويَخيبُ الأملُ في أوساط الشعب، بينما تتكون طبقة جديدة تُثْرِي من أموال الشعب، ومن أسلاب الطبقة البائدة، ويُفسدها الترفُ، ويَنضُج الوضعُ لانقلاب جديد.

للخروج من هذا الدور يلزمُ جندَ الله أن يتفاهموا حتى يكونوا على بينة مما ينتظرُهم. وأدنى سوء تفاهم في الخطة يتفاقم يوم الزحام إلى أزمةٍ في القيادة. ولئن كان غيرُنا يَحُلُّ تلك الأزمات بتصفية الحسابات الدموية، فلا يحق لأهل الحق أن يتحولوا أشداءَ بينهم. لهذا ينبغي أن يعلم الكل مهمة الكل. خاصة مهمةَ المجلس القياديِّ. خاصة مهمة القائد الإمام. ويتأكد التفاهم المسبق إن تصدت للحكم رابطة تضم جماعات متعددة، ويتأكدُ الوفاء بشرط التعاون، ويتأكد التواصي بالحق والصبر.

نرجع إن شاء الله لتفصيل كل هذا. ونضع بين يدينا هنا، فهذا مكانُها، قاعدةً من قواعد القومةِ، وهي أنها الكريهةُ. وهذا اسم من أسماء القتال في كلام العرب. إنَّ القومة حملُ الناس على ما يكرهون. عامةُ الناس وسوادُهم الأعظمُ لا يَنْشَطُونَ إلا للكلام المعسول، وجندُ الله يجب أن يَصْدُقوا الناسَ فيُخبِرُوهم أنَّ أيَّ انتصار لا يحصل قبل بذل النفس والنفيس. السوادُ الأعظم من المسلمين نشأوا وشبوا وشاخوا، الجيلُ بعد الجيل، في حِجر الحكم المستبد، حتى تَبَطَّنَتْهم ذِهنية الرَّعِيَّة التي تنتظر من يقوتُها ويدبر لها أمرها. وجند الله يجب أن يُعَوِّدوا الناسَ أن يحملوا متاعبَهم بأنفسهم. السوادُ الأعظمُ لا يحب أن يتنازل عما أَلِفَهُ ولا أن يُضَحِّيَ براحة يومِه ليوَفِّر أتعابَ السِّنين، وجند الله يجب أن يحملوا الأمةَ على حزْم البطون. مع الإجراءات الضرورية لإعادة القسمة، ومحاربة الترف، وإنصاف المستضعفين.

كريهة، وعلى الطليعة أن تكون أولَ من يُعطي المثالَ. طليعة القوم في القتال أولُ من يلقى البأسَ، وأولُ من يَفْدي بنفسه وحياتِه. فإذا كان هذا الطليعة ميالا للرَّخاوة، وكان تُعجبه الحلْوى والـمَلَذَّات، وكان هواه أحبَّ إليه من الكراهية الواجبة، فإنه يومَ الزحام يمُدُّ عينيه للمَغْنَمِ، والمسْكَنِ الرفيه، والمتاع المترف. وهي إذن الكارثةُ.

على قمة التجريدة الطليعية القائدُ الإمام. له الطاعة وعليه الشورى. وبما أنها كريهة فقد أعطاه الشرعُ أن يطاع «في المنشط والمكره»، وأعطاه الشرعُ أن يُطاع ولو اعتبر جنديٌّ من جند الله أنَّ حقّا له أُهْمِل. في حديث عُبادة بن الصامت رضي الله عنه الذي سنرجع إليه إن شاء الله تفصيلٌ لشروط البَيْعَة، ومنها أن يلتزم المبايعُ طاعةَ الأمير ولو حَصَلَتْ أَثَرَةٌ عليه. أي ولو فَضَّلَ الأميرُ غيره عليه. وبهذا وحدَه يمكن للكل أن يحمل الكُلَّ على اقتحام العَقبَةِ. الإمام تحمله على الاستقامة يَقَظَةُ الجند وواجبُهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو يحملهم على الجادة بواجب الطاعة «في المنشط والمكره وأَثَرَةٍ عليهم».

عند احتضار عُمَرَ رضي الله عنه ووصيَّتِه كان مما قال عن الخلافة من بعده: «لَوْ وَلَّوْهَا الأَجْلَحَ (أي الأصلع) لحملهم على الجادَّة». والأجلحُ هو أمير المؤمنين عليٌّ عليه السلام. وهكذا يتجلى كيف ينبغي أن تكون القيادةُ القوية ضَماناً للتقدم على منهاج العقبة الشاقة. قيادة «تحمل على الجادة».

لا يُنَزَّهُ مخلوقٌ ما دون النبيئين عليهم الصلاة والسلام عن الهوى وطغيانِه. حتى ولا أقدَرُ الرجال وأتقاهم. وفي الشريعة الأحكام الواضحة لحسم الهوى ونَوازِعِه، فبتطبيقها تجنب القيادةُ التردُّدَ، والخلافَ المتشعبَ المزمنَ، وتوَلُّدَ الأحقادِ والعداواتِ. فما لا يغطيه

التحابُّ في الله من عيوب الهوى يغطيه التفاهمُ على خُطة موحدة وفهم متقارب متسامح. وما لا تغطيه تانك الناظمتان تضع الطاعة له حدا. ويُقابِلُ حقَّ الطاعة للقائد الإمام حقُّ الجند في نَزْعه إن حاد عن الجادَّة. بهذه الصرامة من الجانبين تكتسب القيادةُ الـمَنَعَة من الاستبداد، وتكسب التماسُك اللاّزم، لتحْمِلَ الشعب على السير.

كتب شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله في ضرورة مزج الرفق بالـمَضاءِ، وواجبِ الراعي في الإحسان إلى الرعية، قال: «فليس حُسنُ النية بالرعية والإحسانُ إليهم أن يفعلَ ما يهْوَوْنَه ويتركَ ما يكرهونه. فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ وقال تعالى للصحابة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾. وإنما الإحسان إليهم فعلُ ما ينفعهم في الدين والدنيا، ولو كرهه من كرهه. لكن ينبغي له أن يرفُقَ بهم فيما يكرهونه. ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما كان الرفقُ في شيء إلا زانه، ولا كان العنفُ في شيء إلا شانه». وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يُعطي على العنف». وكانَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: «والله إني لأريدُ أن أُخْرِجَ لهم الـمُرَّة من الحق، فأخافُ أن ينفروا عنها، فأصبرُ حتى تجيءَ الحلوةُ من الدنيا فأخْرِجُها معها. فإذا نفروا لهذه سَكَنوا لهذه»[1].

ما هو حد الرفق وحدودُه عندما يتعلق الأمر بمصيرِ القومة ؟ ما يميز القوةَ الماضيةَ العازمةَ عن العنف المخرِّب ؟ ما يفصل الحقَّ الـمُرَّ عن الباطل تستحليه النفوسُ الواهِنةُ ؟ إذا سقطت القيادة في مهواة تملُّق الجماهير، وتزييف الأرقام، وتعميةِ الأخبار، فقد فَقَدتْ

(1) الفتاوي، ج28، ص: 364-365.

مؤهلات القيادة، وانجرفت مع السهولة، وسقطت عن مرتبة الشهداء بالقسط. وأينَ مثلُ عمر بن عبد العزيز رحمه الله ؟

القرار للقائد الإمام

كنت أتحدث مع بعض الأخيارِ من رجال الدعوة وعلمائِها في أمر الشورى وكيف يُتَّخَذُ القرارُ. فكان يرى أن الشورى ملزمةٌ للإمام، وكنتُ أحاورُه في ضرورة القيادة بمعنى وجود فرد يعزم ويختار من بين الآراء وتكون كلمتُه الأخيرة. وإلا كانت الشورى جسما منبسطا لا رأس له. فعندما نقبل الشورى مبدأً وندخل فيها فإنما نفعل ذلك لنخرج بِقرار. والمطلوبُ شرعا أن يحصل الإجماع وطِيبَةُ القلب. وهذا ما لا تُحَقِّقُه قواعدُ الديمقراطيات من حسابِ الأصوات، وتغليب رأي على رأي. وتَرْشَحُ كلمةُ «أغلبية» التي ترجمنا بها معانيَهم بما يدل على ما وراء تغالُب الأصواتِ من منافسة رديئة، وما يُخَلِّفُهُ انتصار رأي من حزازات. ولا ينبغي في الإسلام أن تَتْرُكَ الشورى مرارةَ الهزيمة في نفوس بعض، ونَشْوةَ التغلب عند بعض. وإذا ظننا أن الشورى إنما أَمَرَ بها الشرع ليشعر المؤمنون أنهم في الحق سواءٌ، وليُرْضِيَ كل منهم أنانيته من خلال الإدلاءِ برأيه والدفاع عنه، فقد فاتنا أنَّ الأمة المجاهدة لا تُضيع الوقت في المجاملات، وأن النتيجة العمليةَ، والقرارَ التنفيذيَّ، هما الثمرة المرجوة من غراس الشورى. فإذا اجتمع لنا فضيلتا الإجماع على الرأي، ومع الإجماع التصافي وطِيبةُ القلب، فهما زُبْدٌ بعسل. وإن تعذر الإجماعُ فلا يمكن الحفاظُ على التوادِّ، وهو قاعدة الوَلاَيَةَ وأساسُ نظامها، بحساب الأصوات. وهنا تأتي أهميةُ الناظمة الثالثة: الطاعة لأولي الأمر.

نعم، في العقول تفاوتٌ، وليس الناس سواسيَةً في القدرة على استيعاب المشاكِل المطروحة، وعلى فقه الأحكام الشرعية ومآخِذِها ومَناطِها. لكنْ متى كان الصوابُ في الاجتهاد مسألةَ أرقام؟ عند قرع الحجة بالحجة ومواجهة الرأي بالرأي يُرجَى أنْ تنقدح لأهل الشورى معالم الحق. لكن هنالك أيضا خَطرُ أن يؤول المجلسُ إلى لَجَاجٍ عقيم. فلا بد من حسم. وقد جاءت الشريعة بما لا يدع مجالاً للتلجلج والأخذ والرد عندما فرض الله علينا طاعة الإمام وأعطى هذا الإمامَ، خَليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حقَّ العزمة في قوله تعالى:﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (سورة آل عمران، 159).

هذه الآية الكريمة الجامعة فصَلَتْ الحدودَ بين الفظاظة والعنف وبين الليونة واللطف. فبالعفو الدال على سلامة القلب، وبالاستغفار لإخواننا الدال على وَلائنا إياهم في الله، وبالشورى في الأمر الدالةِ على الرغبة في التعلم وإشراك إخواننا في أمرنا ينفسح أُفُقُ الوَلاَية طَيِّباً وَدوداً. لكنها الـمُيوعة إن غابت لحظةُ العزم وصرامة القرار تتبعها الطاعة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ**﴾ ما يلي: «روى ابن مردويه عن علي بن أبي طالب قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العزم فقال: «**مشاورةُ أهل الرأي ثم اتباعُهم**». وقرأ ابن عباس ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ كما روى ذلك البخاري في الأدب. وروى الحاكم وصححه عن ابن عباس: «وشاورهم في الأمر، قال: أبو بكر وعمر».

حَاصِلُه أن الإمام، أسْوَةً برسول الله صلى الله عليه وسلم، يستشير في بعض الأمر بعضَ الناس. وتبقى له العزمة الحاسمة، يتبعُ أهلَ الرأي إن كان إجماع أو أغلبية واضحة، وإن حصل العنت، وهو التعَب، أو خشي حصولَه فالآية الأخرى ترد الطاعة والاتباع إلى صاحبهما. وذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ (سورة الحجرات،7). أخرج ابنُ المنذر عن ابن جريج رحمهما الله في قوله تعالى: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ يقول: لأعْنَتَ بعضُكم بعضا. كذا ذكره السيوطي رحمه الله في «الدر المنثور». والعنَتُ التعب.

لا بأس من تكرار هذه الحقائق لتستقر. ومناسبتُها هنا أهمية طاعة الإمام وأهميةُ عزمته لكي تمضي الطليعة القيادية كالسهم تخرِق الرمِيَّاتِ.

أمراض الجماعة

روى أبو داود والترمذي وابن ماجه رحمهم الله، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، عن أبي أمية الشعباني رحمه الله أنه سأل أبا ثعلبة الخُشَنِيَّ رضي الله عنه قال: يا أبا ثعلبة ! كيف تقول في هذه الآية : ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ ؟ قال: أمَا والله لقد سألتَ عنها خبيرا ! سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «**بل ائتمروا بالمعروف وتناهَوْا عن المنكر. حتى إذا رأيتَ شُحّاً مُطاعا، وهوىً مُتبعا، ودُنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك -يعني بنفسك- ودع عنك العوامَّ. فإنَ من ورائكم أيامَ الصبر، والصبرُ فيها مثلُ قبضٍ على الجمر. للعامل فيهم مثلُ أجْرِ خمسين رجلا يعملون مثل عمله**». قال أبو داود رحمه الله: وزادني غيرُه (غيرُ الراوي) قال: **يا رسول الله ! أَجْرُ خمسين منهم ؟ قال: أجر خمسين منكم**».

وروى ابن حِبَّانَ رحمه الله وغيرُه هذا الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «**كيف بك يا عبدَ الله بنَ عمرو إذا بقِيتَ في حُثَالَةٍ من الناس مَرِجَتْ عهودُهم وأمانتُهم، واختلفوا فصاروا هكذا**»، **وشبَّك بينَ أصابعه. قال: قلت: يا رسول الله! ما تأمرني؟ قال**: «**عليك بخاصتك ودع عنك عوامَّهم**».

عندما خاطب الله عز وجل المؤمنين وأيَّهَ بهم: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كلف بالشريعة مَنْ هم الأُمناءُ عليها المسؤولون عن تطبيقها، وهم جماعة من استكملوا الإيمان. فهو خطاب مُوَجَّهٌ للجماعة، فما يخُصُّ العبادةَ الفرديَّةَ وباطنَ الإيمان الذي يبقى دائما بين العبد وربه فالفردُ المؤمنُ مكلَّفٌ به مسؤول عنه في خاصته. وما كان عامّا يمَس حياة الأمة، وسلامَتَها، وقيامَها بأعباء الرسالة، فالمسؤوليةُ الفرديَّةُ عنه أمام الله تعالى تسبِقها في الزمان مسؤوليةُ المؤمن أمام إخوانه هنا، لأنهم شركاءُ في الخطاب. ومن جملة ما يشترك فيه المؤمنون، بل أصلُه، الوَلاَيةُ الإيمانيةُ والجهادية. قال الله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ**﴾ (سورة التوبة، 71). وقال عز من قائل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ**﴾. الآيات من آخر سورة الأنفال.

لم تَذكُر آيةُ الوَلاَية العامَّةِ بين المؤمنين هجرةً ولا نُصْرةً ولا جهادا. إنما ذكرت الأمرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر، وإقامةَ الصلاة، وإيتاءَ الزكاة، وطاعةَ الله ورسوله. بينما تذكر آيات الوَلاية الجهادية إيمانا أعلى مقاما وأكثرَ مَطْلَباً: تشترط إيمانَ الهجرة والنصرة، والإيواء

والجهاد. معنى هذا أن عامة المؤمنين يقف واجبُهم تُجاهَ أمرِ المسلمين، أيْ شؤونِ الحكم، والحفاظ على أخلاق الأمة، عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعةِ الله ورسوله وأولي الأمر. ومعناه أن الجماعة أو الرابطة المجاهدةَ هي حاملةُ الأعباء، فيُطلَبُ إليها أن ترتفع إلى مستوى مسؤولياتها. وما يقدح في إيمان عضو الجماعة المجاهدة قد لا يقدح في إيمان عامة المؤمنين.

وهنا يَجيء الحديثان اللذان سُقناهما في أول العنوان ليُفَصِّلا أمراضا تقْدَحُ في إيمان الخاصة، وتَسْقُطُ بهم إلى مراتب العامة. فحديث أبي ثعلبة رضي الله عنه يوصي فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنَ بالأمر بالمعروف النهي عن المنكر ما لم تَفْشُ أمراضُ الشُّحِّ الـمُطاع والهَوَى المتبع والدنيا الـمُؤْثرةِ وإعْجَابُ كلِّ ذي رأي برأيه. أوصاهُ إن فشت هذه الأمراض أن يلْزَمَ نفسَه ويتركَ العوام.فنفهمُ أن هذه الأمراضَ تنـزل بمن ابتُلي بها إلى العَامِّيَّةِ. وهناك عاميتان: عامية المؤمن الضعيف، في قلبه عقيدة ثابتةٌ، لكنَّ لنفسه عليه سلطانا غلاَّبا. وعامِّيَّةُ المسلم الذي لَمَّا يدخل الإيمانُ في قلبه، وهذه حال الأعراب، بالمعنى القرآني للكلمة. ويشرح تنبيهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن حُثالَةَ الناس هم أقوامٌ مارجةٌ عهودُهم وأماناتُهم، مختلفون مشتبكون. وذكر أنهم عوام.

كل إخلال بشعبة من شعب الإيمانِ البضع والسبعين ينقُصُ من كفاءة المؤمن، والإخلالُ بواحدة من هذه الأمَّهات التي ذكرها الحديثان يحُط الـمُخِلَّ إلى درجة العامَّة. وقد ذكرنا في غير هذا المكان كيف يُخْتار عُضو الجماعة، وكيف يمتحن قبل أن يُعترف له بالعضوية ويقلَّدَ المهامّ. وإنه لامتحان مستمر، لا يؤمَنُ مَعَهُ على غير المعصومين أن يُطغيهم السلطانُ، فيقلِّصَ من إحسانهم الشُّحُّ الـمُطاع، أو يضِلَّهُم

الهوى المتبعُ، أو تُغريهم الدنيا فيؤثروها على الآخرة، أو يُعْجَبَ كُلُّ ذي رأي برأيه فينْشِبَ الخِلافُ، أو تَخْرَبَ الذمَّةُ فتَمْرَجَ العهودُ والأماناتُ. أمراضٌ خطيرة الوقاية منها ذكر الله، وعلاجُها الاستغفار والإنابةُ. على أن المريض بهذه العاهات إن تسلل للجماعة، وهذا يحدث إن تكاثر العدد بسرعة، لا ينبغي أن يُتْرَكَ لِيُعْدِيَ المؤمنين، بل يُعتنى به في مِصحات التربية، بعيدا عن كل مسؤولية، مع عوامِّ الناس.

هناك مرضان رئيسان يتربصان كل جماعة بشرية، لاسيما إن تولت الحكم، وهما العُجْب المستكبر، وبِطانة السوء.

العجب

كتب الإمامُ عليٌّ عليه السلام إلى أحد عُماله قال: «وإياك والإعجابَ بنفسك، والثقةَ بما يعجبك منها، وحبَّ الإطراء. فإن ذلك من أوثق فُرَصِ الشيطان في نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين. وإياكَ والمنَّ على رعيَّتِك بإحسانك، أو التزَيُّدَ فيما كان من فعلك، أو أن تَعِدَهم فتُتْبعَ موعدَكَ بِخُلْفِك. فإن المنَّ يُبطل الإحسان، والتزيُّدَ يَذْهَبُ بنور الحق، والخُلْفَ يوجب المقتَ عند الله والناس. قال الله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾»[1].

كيف يتكون الطاغوت في نفوس الحكام؟ كيف يتفرعنون؟ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (سورة العلق، 6-7) ثم قال بعدها: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ (سورة العلق). إذا كان الحاكم لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحسُبُ حسابَ الرُّجْعَى إلى الله العزيز العليم فالطغيان طبعُه الذي لا محيدَ له عنه. ومن النفوس ما هو خسيسُ

(1) نهج البلاغة، ج3، ص: 108-109.

المعدن، لئيمُ الـمَحْتِدِ، ينتفخ إن طرأ عليه ما يُوهِمُه بالتفوق الذاتيِّ على العباد. وتتعاشر الطاغوتية فيتكون الملأ المستكبر. تتكون شرذمةٌ تطأ رقابَ العباد، تستأثر بالأموال، وتفتِك بالمعارضين، وتستعبد لنـزواتها وشهواتها كل إمكانيات الدولة. وتتخذ صنائعَ ترفعهم إلى المسؤوليات من صنف المتملقين الوصوليين. فإنَّ النفس الطاغوتية تُحب من يتملقها ويطريها، ويزايد في الإشادة بفضائلها المزعومة.

تأمل كلمات الإمام علي كرم الله وجهه تر فيها كيف تنشأ عبادةُ الحاكم، وكيف تبتدئ من عبادته هو لنفسه، وكيف يعتبر نفسه فوق البشر، فيمُنُّ على الرعية كأنه إلهٌ مُنعم، وكيف تُفلت من يده كوابحُ الحياء والحشمة فيَعِدُ ويُخْلِفُ، ويكذب. حتى يفتضحَ ويمقتَه الله والناسُ. صورةٌ لما يسمى بلسان العصر «عبادة الشخصية» وسيطرة «النخبة» الحزبية، و«برجوازية الدولة»، وسائر هذه الأوبئة المعهودة عند الإنسان الغافل عن الله عز وجل وعن الرجعى إليه. وتلافيا لمثل هذا أوجب الله علينا التآمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، والشد على يد الطاغي. فيجب التيقظ الدائم، ومحاربةُ كل ظاهرة طاغوتية مهما كانت صغيرة، فمن الشرر تندلع النار.

البِطانة

أخرج البخاريُّ والنسائيُّ رحمهما الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانةٌ تأمره بالمعروف، وتحُضُّهُ عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه. والمعصومُ من عصم الله**». ولفظ النسائي رحمه الله: «**ما من وال إلا وله بطانتان، بطانةٌ تأمره**

بالمعروف وتنهاه عن المنكر، وبطانة لا تألوه خَبالاً. فمن وُقِيَ شَرَّها فقد وُقِيَ، وهو من التي تَغْلِبُ عليه منهما». قال ابن الأثير الجزَرِيّ رحمه الله: بطانةُ الرجل صاحبُ سره، وداخِلةُ أمره، الذي يشاوره في أحواله. وقال: لا تألوه خَبالاً، أي لا تُقَصِّرُ في إفساد أمره. والخبال والخَبَل الفسادُ، يكون ذلك في الأفعال والأقوال والأجسام. وورد في كتاب الله عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ**﴾ (سورة آل عمران، 118).

نقل الحافظ ابن حجر رحمه الله عن ابن التين رحمه الله أن البطانتين المذكورتين في الحديث يُحْتَمَلُ أن يكون المرادَ بهما الوزيران، ويحتمل أن يكون المرادَ منهما المَلَكُ والشيطان. لكنَّ الآية الكريمة تنهانا عن اتخاذ بطانة من دوننا، فالمقصود إذن البطانة من البشر. وفسر ابن كثير رحمه الله أنَّ المقصود بمن دوننا هم المنافقون، وأهلُ الذمة، والمشركون، ومنْ غيرنا من أهل الأديان.

فحصل لنا أن هذه الآفة الجسيمة، التي لا يسلم منها نَبيٌّ ولا خليفةٌ، حريَّةٌ أن تُفْزِعَ كل من اؤتمن على أمور المسلمين. فالمعصومُ من عصمَ الله وهم الأنبياء. وعلى كلِّ من حمل مسؤولية من المؤمنين أن يتعرض لحفظ الله عز وجل بالاحتياط الدائم الشديد من المتملقين وأهلِ الخَبال والفسادِ. وخطرُ البطانة على الوُلاَةَ يتعاظم بثِقل مسؤوليتهم، ويكون أعظمَ على القائد الإمام. تُنْقَلُ إليه معلوماتٌ مُغرضة، ويقع تحت ضغط مَنْ حواليه، ويعزلونه عن الأمة، ويمتصون ما فيه من خير، ليتوصلوا بجاهه ووجاهته وحرمته عند الشعب إلى قضاء الأغراض. وتَقْضِي بطانة السوء الأغراضَ لصنائعها، فتُكَثِّرُ سوادَ أنصارها، وتطرُدُ بطانَةَ الخير. وفي ذلك غرق للجميع. والمعصومُ من عصم الله لا رب سواه.

لهذا ينبغي أن تكون الشورى حرة من كل ضغط من البِطانة. ولا مهرب للوُلاة ولا للقائد الإمام من أخطار البِطانة إلا بفتح الأبواب لممثلي الأمة، وتشجيع المتظلمين على كشف ما يدور حول القيادة وفي ظلها مما يخالف الحق. وكل من كان دونَنا، ممن سقط إلى مرتبة العوام بإخلاله، يُقْصَى ويُحاصَرُ. لم تكن حِجابةٌ على أبواب الولاة ولا على باب أمير المؤمنين في عهد الخلافة. وإنما اتخذ الملوكُ من بعدهم الحجابةَ، فتوفرت شروطُ الاستبداد الفردي. دخل الملوك في رِبقة الـمُلْك، وتحت تأثير الحاشِيَةِ، وفي حُوشِ البَلاط. فكان هذا من أهم أسباب الخَبال في تاريخنا: زُمرةٌ من فوق رقاب الأمة لا وازعَ لها ولا مُنازِع، وملوكٌ أسراء في قبضة الملإ المستعلي. على أنه في زماننا المفتون لا يُتَصَوَّرُ رفع الحِجابة وفتح الأبواب، ولَلْمُجرمون في زماننا أكثرُ عددا وأشدُّ بَطشا من أبي لؤلؤة وابن مُلجم قاتليْ أميري المؤمنين عمر وعلي عليهما السلام.

كتب أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه في عهده للأشتر ما يلي: «ثُم إن للوالي خاصَّةً وبِطانةً، فيهم استئثارٌ، وتَطاوُلٌ، وقلةُ إنصاف في مُعاملة. فاحسِمْ مادة أولئك بقطع أسباب تِلك الأحوال. ولا تَقطعن لأحد من حاشيتك وحامَّتك (خاصتك) قطيعةً. ولا يَطمعَن منك في اعتقاد عُقدة تضُرُّ بمن يليها من الناس في شُرْب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مَهْنَأَ ذلك لهم دونَك، وعَيْبُهُ عليك في الدنيا والآخرة»[1].

(1) نهج البلاغة، ج3، ص: 104.

الفهرس

الفصل الأول

الدعوة والدولة

الفصل الثاني

وَلاَيَةُ الله ورسوله والمؤمنين

الفصل الثالث

جماعة المسلمين

الفصل الرابع

القيادة